عمل القلب
الفريضة الغائبة

تأليف

د. عبد الله بن صالح الكنهل

مصدر هذه المادة :





المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد:

فلا يخفى على الناظر ما آلت إليه أمة الإسلام اليوم من ضعف في الأخذ بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ علمًا وعملاً، وما نتج عن ذلك من تخلف في ميادين الحياة الدنيا. وهوان على أمم الأرض.

ولذلك الضعف والتخلف أسباب عدة. ولا شك أن معرفة السبب الرئيس والداء العضال هو الطريق إلى الخروج بالأمة مما هي فيه.

وقد جنح أقوام إلى التضخيم والتهويل من مخططات الأعداء، وما يمكرونه بالليل والنهار من أجل صد الأمة عن سبيل الله وإدخالها في عوج المسالك.

وخيل لبعض من الناس أن الأمة باتت في مهب عاصفة هوجاء، تتقاذفها أهواء الأعداء، فصاروا يرقبون من خلال وسائل الإعلام ما يريد الأعداء بهم. ليرسموا من خلال ذلك صورة متشائمة لمستقبلهم، مما نتج عنه الإحباط والقعود، والعزوف عن العمل المثمر، والإصلاح المنشود.

ومع ما لكيد الأعداء من أثر لا ينكر، إلا أن الموفقين من هذه

الأمة يعزون السبب الرئيس إلى الأجواء الداخلية، التي استشرت في جسد الأمة. فأبعدتها عن حقيقة الدين، وأسباب النصر والتمكين.

ولا ريب أن صلاح الأمة في صلاح أفرادها، ولا ريب أن صلاح الأفراد في قيامهم بما أوجب الله عليهم ظاهراً وباطنًا.

وقد بين الله عز وجل أن كيد الأعداء ما كان ليضر المسلمين لو قاموا بما يجب لله في قلوبهم: ﴿ **وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا** ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

والصبر في أصله عمل قلبي، وأما التقوى فأساسها تقوى القلوب كما قال رسول الله ﷺ: «**التقوى ها هنا**» ويشير إلى صدره ثلاث مرات [(١)].

وأخبر جل وعلا أن الذين ينتصر بهم الدين هم أصحاب الأعمال القلبية ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [المائدة: ٤٥].

وكأن النبي ﷺ يصف واقع الأمة اليوم ويبين داءها حين يقول ﷺ: «**يوشك أن تداعى عليكم الأمم، كما تداعى الأكلة على**

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٤).

قصعتها». فقال قائل: ومن قلة يومئذ؟ قال: «**بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن**» فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: «**حب الدنيا وكراهية الموت**»[١]. والوهن هو الضعف، والمراد بقوله: وما الوهن؟ أي ما موجبه وما سببه [٢].

إن المخرج من هذه الغثائية هو العلم النافع والعمل الصالح، تصحيحًا للاعتقاد، وترسيخًا للإيمان، وتوجيهًا للقلوب نحو بارئها، فلن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، وقد ورد عنه ﷺ: «**أن صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين، ويهلك آخرها بالبخل والأمل**» [٣].

وإذا كانت سبيل فلاح الأمة مرهونًا بذلك، فإن ذلك أيضًا هو سبيل فلاح أفرادها في الدنيا والآخرة.

والعلم والاعتقاد الصحيح لابد أن ينضم إليهما عمل القلب

---

(١) أخرجه أحمد (٥/٢٧٨) وأبو داود (٤٢٩٨). وهو في سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني رقم (٩٥٨).

(٢) انظر: عون المعبود (١١/٤٠٥).

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٣٨٤٥).

والجوارح؛ وذلك أن العلم بالشيء غير وجوده والاتصاف به، فكم من إنسان يعلم ويعرف المحبة وأحكامها وجميع لوازمها ولكن قلبه خال منها، وكم من عبد يعرف ويعترف بقضاء الله وقدره وحسن كفايته، ولكن إذا وقع المقدور بخلاف ما يحب، رأيته مضطربًا لا طمأنينة عنده ولا ثقة ولا سكون، وإلا فمن وصلت إلى قلبه معرفة الله حقيقة، اطمأن إلى كفاية الله، واستسلم لحكمه حيثما تنقلت به الأحوال [١]. وقد دلت على ذلك سورة العصر.

وما يعيشه كثير من الناس اليوم من قلق وآلام نفسية، سببه انصراف القلوب عن وظائفها التي خلقت لها، فصليت بنار هموم الدنيا، ولم تطعم برد اليقين والمحبة والرضا والتوكل.

ومن لم يدخل تلك الجنة العاجلة في الدنيا يخشى عليه ألا يدخل الجنة الآجلة في الآخرة ﴿ **يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٩٨].

وهذه الغفلة عن أعمال القلوب من مخالفة لطريق نبينا ﷺ يقول ابن رجب: فأفضل الناس من سلك طريق النبي ﷺ وخواص أصحابه في الاقتصاد في العبادة البدنية، والاجتهاد في الأحوال القلبية، فإن سفر الآخرة يقطع بسير القلوب لا بسير الأبدان [٢].

---

(١) مجمع الفوائد للشيخ عبد الرحمن بن سعدي (ص: ٣٠، ٣١).

(٢) المحجة في سير الدلجة (ص: ٥٦).

وبهذا وغيره مما سيأتي يتبين أهمية الكتابة في موضوع أعمال القلوب. ومسيس الحاجة إلى التذكير بعظم قدرها.

وقد جعلت هذا الكتاب بعنوان: عمل القلب الفريضة الغائبة [(١)].

وسيكون الكلام في هذا الموضوع ضمن ثلاثة فصول وخاتمة.

الفصل الأول: الطاعات والمعاصي القلبية.

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الطاعات القلبية.

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: حكمها وأمثلتها.

المطلب الثاني: درجات الناس في القيام بها.

المطلب الثالث: واقع كثير من الناس تجاهها.

المبحث الثاني: المعاصي القلبية.

---

(١) وصف أعمال القلوب بالغيبة من ناحية ذاتها فهي لا ترى بالعيون. قال في لسان العرب: (الغيب كل ما غاب عنك.. والغيب أيضًا ما غاب عن العيون وإن كان محصلاً في القلوب (٣٢٢٢/٦). وكذلك من ناحية تذكرها عند المحاسبة والتوبة، فكثيرًا ما تغيب عن الأذهان

وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول: حكم تعلم علم القلب.

المبحث الثاني: كيفية القيام بالأعمال القلبية.

المبحث الثالث: نبذة في وسائل إصلاح القلب.

المبحث الرابع: وجوب لزوم السنة في طريق إصلاح القلب.

المبحث الخامس: إنكار منكرات القلوب وخطأ التثبيط عن الخير حذر الرياء.

الخاتمة.

وفي ختام هذه المقدمة، أسأل الله أن ينفع بمحتوى هذا الكتاب، الذي هو اقتباس من مشكاة الكتاب والسنة، وما سطره علماء الأمة، وليس لي فيه إلا الجمع والترتيب والتنسيق، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل، والحمد لله أولاً وآخرًا، وصلى الله على نبيا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

كتبه عبد الله بن صالح الكنهل

alkenhel@hotmail.com

الفصل الأول
الطاعات والمعاصي القلبية

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الطاعات القلبية.

المبحث الثاني: المعاصي القلبية.

المبحث الثالث: تأثير التفريط في القيام بالطاعات القلبية في التلبس بمعاصيها.

المبحث الأول
الطاعات القلبية

الحديث في الطاعات القلبية سيكون من خلال المطالب التالية:

المطلب الأول: حكمها وأمثلتها

الطاعات القلبية منها ما هو واجب باتفاق العلماء، ومنها ما هو مستحب، ومنها ما اختلف في وجوبه.

ويبين شيخ الإسلام ابن تيمية بعض ما اتفق على وجوبه. فيقول: (أعمال القلوب هي من أصول الإيمان، وقواعد الدين، مثل محبة الله ورسوله، والتوكل عليه، وإخلاص الدين له، والشكر له، والصبر على حكمه، والخوف منه، والرجاء له وما يتبع ذلك، فهذه الأعمال جميعًا واجبة على جميع الخلق باتفاق أئمة الدين [١]).

ويصف رحمه الله الظن بأنها من المستحبات بأنه ضلال مبين فيقول: (وتظن طائفة أن التوكل إنما هو من مقامات الخاصة، المتقربين إلى الله بالنوافل، وكذلك قولهم في أعمال القلوب وتوابعها، من الحب والرجاء والخوف والشكر ونحوه، وهذا ضلال مبين، بل جميع هذه الأمور فرض على الأعيان، باتفاق أهل الإيمان) [٢].

---

(١) مجموع الفتاوى (٦٢٥/١٠).

(٢) مختصر الفتاوى المصرية ص: (١٢٤).

وقد حكى ابن القيم اتفاق الأمة على وجوب الأعمال السابقة من حيث الجملة. وزاد عليها الصدق، والإنابة والنية في العبادة، والنصح في العبودية، ثم قال رحمه الله: (وكذلك كل واحد من هذه الواجبات القلبية له طرفان واجب مستحق، وهو مرتبة أصحاب اليمين، وكمال مستحب، وهو مرتبة المقربين) [١].

وقد يقال: فما الذي يميز الواجب المستحق من العمل القلبي عن الكمال المستحب؟

والجواب عن ذلك يتضح بما ذكره ابن رجب في شأن محبة الله. عز وجل وهي رأس الأعمال القلبية، حيث جعلها على درجتين:

الأولى: فرض لازم، وهي المحبة التي توجب للعبد محبة ما فرض عليه، وبغض ما حرم عليه، ومحبة رسوله، وتقديم محبته على النفوس والأهلين، ومحبة ما جاء به، ومحبة سائر الرسل والأنبياء والصالحين، وبغض الكفار والفجار في الله، ومقتضى تلك المحبة الواجبة أن يفعل العبد الواجبات، ويترك المحرمات، ومتى أخل بشيء من ذلك فمحبته لربه غير تامة، فعليه المبادرة للتوبة، والاجتهاد في تكميل المحبة.

الثانية: درجة السابقين المقربين، وهي أن ترتقي المحبة إلى محبة ما يحبه الله من النوافل، وكراهة ما يكرهه من دقائق المكروهات،

---

(١) مدارج السالكين (١/٨٥، ٨٦) وسيأتي كلام لابن تيمية فيه تقسيم تلك الأعمال إلى فرص ومستحب.

والرضا بما يقدره مما يؤلم النفس من المصائب [١].

ويذكر ابن القيم أن هناك أعمالاً اختلف في وجوبها، مثل الرضا بالقضاء الكوني الجاري على خلاف مراد العبد ومحبته مما لا يلائمة ولا يدخل تحت اختياره، كالمرض، والفقر وأذى الخلق له، مع الاتفاق على وجوب الرضا بالله ربًا وإلهًا، والرضا بأمره الديني.

وكذلك الخشوع في الصلاة، وهل تلزم إعادة الصلاة من أخل به؟ مع الاتفاق على أنه لا يثاب على شيء من صلاته إلا بقدر حضور قلبه وخضوعه [٢].

وما قرره أولئك الأئمة من وجوب تلك الأعمال القلبية، هو ما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة، من الأمر بتلك الأعمال المقتضي وجوبها.

ومن نصوص القرآن في هذا قوله سبحانه: ﴿ **وَعَلَى اللهِ**

---

(١) انظر: استنشاق نسيم الأنس ص: (٣٠، ٣٥). اختيار الأولى ص(١٢٦، ١٢٧).

(٢) انظر: مدارج السالكين (٨٦/١، ٨٧) وفيه ذكر الأقوال والأدلة لكلتا المسألتين. وانظر: بحثًا مهمًا في أدلة وجوب الخشوع في مجموع الفتاوى (٥٥٣/٢٢، ٥٧٢) طرح التثريب (٢٣٧٢/٢) وتفصيلاً في مسألة الرضا في تهذيب مدارج السالكين ص (٣٦٨، ٣٧٢) ومختصر الفتاوى المصرية ص (٩٦) ومجموع الفوائد لابن سعدي ص (٤٠-٤٢).

فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٢٣].

وقوله: ﴿ **فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٧٥] وقوله: ﴿ **وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ** ﴾ [الزمر: ٥٤] وقوله: ﴿**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ**﴾[البقرة: ١٥٢] وقوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

وكذلك جعلها من الإيمان الواجب من خلال أسلوب الشرط كما في الآيتين الأوليين.

ومن نصوص السنة في الأعمال القلبية قوله ﷺ: «**استحيوا من الله حق الحياء**»(١) يفيد وجوب الحياء من الله.وقوله: «**اتق الله حيثما كنت**»(٢) يفيد وجوب المراقبة، ومن نصوصها في جعل بعضها من الإيمان الواجب قوله: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين**»(٣).

---

(١) أخرجه أحمد (٣٦٧١) والترمذي وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

(٢) أخرجه أحمد (٥/١٥٣) والترمذي (١٩٨٧) وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

(٣) أخرجه البخاري (١٥) ومسلم (٤٤).

المطلب الثاني: درجات الناس في القيام بها

يقول الله عز وجل: ﴿ **ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ** ﴾ [فاطر:٣٢].

وهذه الثلاث هي درجات العباد في أعمال القلوب والجوارح.

يقول ابن تيمية: (والناس فيها يعني أعمال القلوب على ثلاث درجات كما هم في أعمال الأبدان...).

ظالم لنفسه: وهو العاصي بترك مأمور أو فعل محظور.

مقتصد: مؤدي للواجبات وتارك للمحرمات.

سابق: المتقرب بما يقدرعليه من فعل واجب ومستحب والتارك للمحرم والمكروه) [(١)].

المطلب الثالث: واقع كثير من الناس تجاهها

الناظر في واقع كثير من الناس يجد غفلة عن تلك الفروض العينية من الأعمال القلبية.

وفي هذا يقول ابن القيم: (فواجبات القلوب أشد وجوبًا من واجبات الأبدان وآكد منها، وكأنها ليست من واجبات الدين عند

(١) مجموع الفتاوى (١٠/٦).

كثير من الناس بل هي من الفضائل والمستحبات).

فتراه يتحرج من ترك فرض أو ترك واجب من واجبات البدن، وقد ترك ما هو أهم منه من واجبات القلوب وأفرضها، ويتحرج من فعل أدنى المحرمات، وقد ارتكب من محرمات القلوب ما هو أشد تحريمًا وأعظم إثمًا[١].

ومن آثار تلك الغفلة أن غالب الناس لا يستحضرون تقصيرهم في تلك الواجبات عند التوبة.

يقول ابن تيمية: (وكثير من الناس لا يستحضر عند التوبة إلا بعض المتصفات بالفاحشة أو مقدماتها، أوبعض الظلم باللسان أو اليد، وقد يكون ما تركه من المأمور الذي يجب لله عليه في باطنه وظاهره من شعب الإيمان، وحقائقه أعظم ضررًا عليه مما فعله من بعض الفواحش.

فإن ما أمر الله به من حقائق الإيمان التي بها يصير العبد من المؤمنين حقًا أعظمًا نفعًا من ترك بعض الذنوب الظاهرة، كحب الله ورسوله، فإن هذا أعظم الحسنات الفعلية[٢].

---

(١) إغاثة اللهفان (٢/١٨٠).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/٣٢٩).

المبحث الثاني
المعاصي القلبية

كما أن المعاصي تكتسب بالجوارح، فإنها تكتسب بالقلب أيضًا، وهي من باطن الإثم الذي أمرنا ربنا بتركه، فقال: ﴿ **وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ** ﴾ [الأنعام: ١٢٠].

وسيكون الكلام في تلك المعاصي بذكر أقسامها، وأمثلتها وواقع كثير من الناس تجاهها.

المطلب الأول: أقسام المعاصي القلبية وأمثلتها:

ذكر ابن القيم أن المحرمات القلبية ضربان:

الأول: ما يكون كفرًا، كالشك، والنفاق، والشرك، وتوابعها.

الثاني: ما يكون معصية دون الكفر، وهي نوعان:

(١) كبائر: ومثل لها ابن القيم بالرياء، والعجب والكبر، والفخر، والخيلاء، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله، والفرح والسرور بأذى المسلمين، والشماتة بمصيبتهم، ومحبة أن تشيع الفاحشة فيهم وحسدهم على ما آتاهم الله من فضله، وتمني زوال ذلك عنهم.

ثم قال: (وتوابع هذه الأمور التي هي أشد تحريمًا من الزنا وشرب الخمر وغيرهما من الكبائر الظاهرة، ولا صلاح للقلب ولا للجسد إلا

باجتنابها، والتوبة منها، وإلا فهو قلب فاسد، وإذا فسد القلب فسد البدن.. وهذه الأمور قد تكون صغائر في حقه، وقد تكون كبائر بحسب قوتها وغلظها وخفتها ودقتها) (١).

ويشهد لما ذكره ابن القيم من أن معاصي القلوب في الجملة أعظم من المعاصي الظاهرة قوله ﷺ: «**لو لم تذنبوا، لخفت عليكم ما هو أكبر من ذلك، العجب**»(٢).

وقوله لأصحابه وأمته من بعدهم: «**إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر: الرياء**»(٣).

(٢) صغائر: ومثل لها ابن القيم بشهوة المحرمات وتمنيها.

فقال: (ومن الصغائر أيضًا شهوة المحرمات وتمنيها، وتتفاوت درجات الشهوة في الكبر والصغر، بحسب تفاوت درجات المشتهي، فشهوة الكفر والشرك كفر، وشهوة البدعة فسق، وشهوة الكبائر: معصية فإن تركها لله مع قدرته عليها أثيب، وإن تركها عجزًا بعد بذله مقدوره في تحصيلها، استحق عقوبة الفاعل...) (٤).

وما سبق تقريره من تحريم هذه الأعمال قد دلت عليه أدلة

---

(١) مدارج السالكين: (٨٨/١)

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، وهو في السلسلة الصحيحة (٦٥٨).

(٣) رواه أحمد (٤٢٨/٥) وهو في السلسلة الصحيحة (٩٥١).

(٤) مدارج السالكين (١١٤/١).

الكتاب والسنة.

فمن الآيات القرآنية الدالة على بعض المحرمات القلبية، قوله سبحانه ﴿ **أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ** ﴾ [الأعراف:٩٩].

وقوله: ﴿ **قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ** ﴾ [الحجر: ٥٦].

وقوله: ﴿ **إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ** ﴾ [يوسف: ٨٧].

وقوله: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ** ﴾ [الحجرات: ١٢].

وقوله: ﴿ **يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ** ﴾(١) [آل عمران: ١٥٤].

ومن الأحاديث النبوية في هذا قوله ﷺ: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**»(٢).وقوله ﷺ: «**ثلاثة لا تسأل عنهم: رجل ينازع الله إزاره، ورجل ينازع الله رداءه، فإن رداءه**

---

(١) انظر:كلامًا حسنًا في موضوع سوء الظن بالله ومظاهره وانتشاره: لابن القيم وابن الجوزي وابن عقيل في تيسير العزيز الحميد (٦٧٥-٦٨٥).

(٢) رواه مسلم (١٤٧).

الكبرياء، وإزاره العز، ورجل في شك من أمر الله، والقنوط من رحمة الله»[١]. وقوله ﷺ: «**بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم**»[٢]. وقوله ﷺ: «**الكبائر الشرك بالله والإياس من روح الله والقنوط من رحمة الله**»[٣].

وقد ورد في ذم الرياء والوعيد على أهله عدة أحاديث ومن ذلك حديث أبي هريرة في الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم الناس يوم القيامة[٤].

المطلب الثاني: واقع كثير من الناس تجاهها

كثير من الناس يغفلون عن تلك المحرمات القلبية علمًا وعملاً ومن ثم لا يستحضرونها عند تجديد التوبة من الذنوب.

وقد نبه إلى هذا أطباء القلوب من علماء الأمة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (واعلم أن كثيرًا من الناس يسبق إلى ذهنه من ذكر الذنوب: الزنا والسرقة ونحو ذلك، فيستعظم أن كريمًا يفعل ذلك. ولا يعلم هذا المسكين أن أكثر عقلاء بني آدم لا يسرقون، بل ولا يزنون، حتى في جاهليتهم وكفرهم... ولكن الذنوب

---

(١) رواه أحمد (١٩/٦) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٥٤٢).

(٢) رواه مسلم (٢٥٦٤).

(٣) رواه البزار وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٠٥١).

(٤) سيأتي ذكره ص (٤٢).

تتنوع وهي كثيرة الشعب، كالتي من باب الضلال في الإيمان، والبدع التي هي من جنس العلو في الأرض بالفساد، والفخر والخيلاء والحسد والكبر والرياء، التي هي في الناس الذين هم متفقون على ترك الفواحش).

وكذلك الذنوب التي هي ترك الواجبات: كالإخلاص والتوكل على الله، ورجاء رحمته، وخوف عذابه، والصبر على بلائه، والصبر على حكمه والتسليم لأمره، والجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونحوه) [(١)].

ونتيجة لهذا الجهل وتلك الغفلة، قد يتلطخ القلب بأدناس المعاصي، وصاحبه سادر.

يقول ابن القيم: (وأكثر المتنزهين عن الكبائر الحسية والقاذورات في كبائر مثلها أو أعظم منها أو دونها، ولا يخطر بقلوبهم أنها ذنوب، ليتوبوا منها!. فعندهم من الإزراء على أهل الكبائر، واحتقارهم، وصوله طاعاتهم ومنتهم على الخلق بلسان الحال. واقتضاء بواطنهم لتعظيم الخلق لهم على طاعاتهم، اقتضاء لا يخفى على أحد غيرهم، وتوابع ذلك ما هو أبغض إلى الله وأبعد لهم عن بابه من كبائر أولئك)[(٢)].

---

(١) مختصر الفتاوى المصرية ص(١٠٨، ١٠٩).

(٢) مدارج السالكين (١٨٦/١).

وإنه ليخشى أن يكون للغافل عن المعاصي القلبية نصيب من قوله تعالى: ﴿ **وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ * وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ** ﴾ [الزمر: ٤٨].

وتلك المعاصي تمرض القلب (ومرض القلب وشفاؤه أعظم من مرض الجسم وشقائه)[١].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/١٤٠).

المبحث الثالث
تأثير التفريط في القيام بالطاعات القلبية
في التلبس بمعاصيها

تقدم في المطلبين السابقين أن أعمال القلوب منها: الطاعات والمعاصي.

والواقع أن هناك أثرًا للتفريط في القيام بالطاعات القلبية في التلبس بمعاصيها. فالقلب وعاء إن عمر بالإيمان واليقين ومحبة الله جل وعلا والإخلاص له وخشيته والرجاء له ونحو ذلك من طاعات القلوب، فإنه سيتخلص مما يضاد ذلك من المعاصي القلبية، كالشك، وتعلق القلب بغير الله، والرياء، ونحوها.

وإن حصل تفريط في القيام بتلك الفرائض القلبية نتج من ذلك التلبس بمعاصي القلب.

يبين هذه الحقيقة ابن القيم حيث يقول: (فوظيفة ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ** ﴾ على القلب قبل الجوارح، فإذا جهلها وترك القيام بها، امتلأ بأضدادها ولابد، وبحسب قيامه بها يتخلص من أضدادها) [(١)].

ومما يوضح ذلك أن محبة الله وخشيته والإنابة إليه والإخلاص كلها من عبادات القلب، والتعلق القلبي بغير الله من خلال العشق المحرم من المعاصي.

---

(١) مدارج السالكين (١/٨٨).

يقول ابن تيمية: (وما يبتلى بالعشق أحد إلا لنقص توحيده وإيمانه، وإلا فالقلب المنيب إلى الله، الخائف منه فيه صارفان يصرفانه عن العشق، أحدهما إنابته إلى الله، ومحبته له، فإن ذلك ألذ وأطيب من كل شيء، فلا تبقى مع محبة الله محبة مخلوق تزاحمه).

الثاني: خوفه من الله، فإن الخوف المضاد للعشق يصرفه [(١)].

وذكر ابن القيم نحوًا مما ذكره شيخه، واستدل عليه بقوله تعالى في حق يوسف ﴿**كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ**﴾ [يوسف: ٢٤] فالآية تفيد: (أن الإخلاص سبب لدفع العشق، وما يترتب عليه من السوء والفحشاء، التي هي ثمرته ونتيجته، فصرف المسبب صرف لسببه) [(٢)].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/١٣٥، ١٣٦).

(٢) زاد المعاد (٤/٢٦٨) وانظر: الاستدلال بالآية على نحو ذلك في مجموع الفتاوى (١٠/١٨٨). قال الشوكاني: (قرأ ابن عامر وابن كثير وأبو عمرو "المخلصين" بكسر اللام، وقرأ الآخرون بفتحها، والمعنى على القراءة الأولى أن يوسف عليه السلام كان ممن أخلص طاعته لله، وعلى الثانية أنه كان ممن استخلصه الله للرسالة) فتح القدير (٣/١٨).

الفصل الثاني
عظم قدر الأعمال القلبية

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: أعمال القلوب ومراتب الدين.

المبحث الثاني: أعمال القلوب ومقاصد الشريعة.

المبحث الثالث: أهمية العناية بالقلب تحلية وتخلية.

المبحث الرابع: الارتباط بين الظاهر والباطن.

المبحث الأول
أعمال القلوب ومراتب الدين

مراتب الدين هي: الإحسان، والإيمان، والإسلام، وللأعمال القلبية شأن عظيم في هذه المراتب الثلاث.

المطلب الأول: أعمال القلوب والإحسان

الإحسان: هو أعلى مراتب الدين، فهو: (لب الإيمان وروحه وكماله)[١]. وقد فسره النبي ﷺ في حديث جبريل المشهور بأنه «**أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[٢]. وفيه إشارة إلى أن الإحسان هو (كمال الحضور مع الله عز وجل، ومراقبته، الجامعة لخشيته ومحبته ومعرفته والإنابة إليه والإخلاص له، ولجميع مقامات الإيمان) [٣].

وقد جاء في حديث أبي هريرة أنه ﷺ قال في الإحسان: «**أن تخشى الله كأنك تراه**»[٤].

وبناء على ذلك فالإحسان أساسه عمل قلبي يقوم على استحضار عظمة الله ومراقبته مما يوجب خشيته، والقيام بحقه.

---

(١) مدارج السالكين (٢/٣٤٣).

(٢) رواه البخاري (٥٠) ورواه مسلم (٨).

(٣) المصدر السابق. وانظر جامع العلوم والحكم (١/١٢٦).

(٤) عند مسلم برقم (١٠).

يقول ابن القيم: (الإحسان إذا باشر القلب منعه من المعاصي، فإن من عبد الله كأنه يراه، لم يكن كذلك إلا لاستيلاء ذكره ومحبته وخوفه ورجائه على قلبه بحيث يصير كأنه يشاهده)[١].

المطلب الثاني: أعمال القلوب والإيمان.

قرر أهل السنة أن الإيمان قول وعمل. ومن العمل الداخل في الإيمان عمل القلب.

يقول ابن تيمية: (أجمع السلف أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص، ومعنى ذلك أنه قول وعمل القلب، ثم قول اللسان وعمل الجوارح)[٢].

فقول القلب: هو تصديقه وإقراره ومعرفته[٣].

وتشمل: اعتقاد ما أخبر الله سبحانه به عن نفسه وعن أسمائه وصفاته وأفعاله وملائكته ولقائه على لسان رسله.

وأما عمل القلب فقد تقدم الكلام عليه.

يقول شيخ الإسلام: (دخول أعمال القلب في الإيمان أولى من دخول أعمال الجوارح باتفاق الطوائف كلها)[٤].

(١) الجواب الكافي ص (١٢١).

(٢) مجموع الفتاوى (٦٧٢/٧).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (١٨٦/٧) إغاثة اللهفان (٨٩/١.

(٤) مجموع الفتاوى (٥٠٦/٧).

ويقول: (الدين القائم بالقلب من الإيمان علمًا وحالاً هو الأصل، والأعمال الظاهرة هي الفروع، وهي كمال الإيمان، فالدين أول ما يبنى من أصوله ويكمل بفروعه) (١). ويقول: (الإيمان أصله الإيمان الذي في القلب، ولابد فيه من شيئين: تصديق القلب وإقراره ومعرفته ويقال لهذا: قول القلب.قال الجنيد بن محمد: التوحيد قول القلب، والتوكل عمل القلب، فلابد فيه من قول القلب وعمله ثم قول البدن وعمله، ولا بد فيه من عمل القلب. مثل: محبة الله ورسوله ﷺ وخشية الله، وحب ما يحبه الله ورسوله، وبغض ما يبغض الله ورسوله، وإخلاص العمل لله وحده، وتوكل القلب على الله وحده، وغير ذلك من أعمال القلوب التي أوجبها الله ورسوله وجعلها من الإيمان) (٢) .

وفي القرآن ما يدل على أن ما يقوم في القلب هو أصل الإيمان، ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿ **أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْ**﴾ [المجادلة: ٢٢].

وقوله: ﴿ **قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ** ﴾ [الحجرات: ١٤].

وقد ورد عنه ﷺ قوله: «**لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم**

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/٣٥٥).

(٢) مجموع الفتاوى (٧/١٨٦).

قلبه»[١].

المطلب الثالث: أعمال القلوب والإسلام.

أصل الإسلام في القلب هو الخضوع لله جل وعلا. يقول ابن تيمية: (دين الإسلام الذي ارتضاه الله، وبعث به رسله، هو الاستسلام لله وحده، فأصله في القلب هو الخضوع لله وحده بعبادته وحده دون سواه. فالإسلام في الأصل من باب العمل: عمل القلب والجوارح) [٢].

ويبين أن الأحاديث التي جاءت في تفسير الإسلام إنما تفسره بأنه (الاستسلام لله بالقلب مع الأعمال الظاهرة كما في الحديث المعروف الذي رواه أحمد عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده أنه قال: والله يا رسول الله ما أتيتك حتى حلفت عدد أصابعي هذه أن لا آتيك، فبالذي بعثك بالحق ما بعثك به؟ قال: «**الإسلام**» قال: وما الإسلام؟ قال: «**أن تسلم قلبك وأن توجه وجهك لله، وأن تصلي الصلاة المكتوبة، وتؤدي الزكاة المفروضة**»[٣]....)[١].

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١٣٠٧٩) وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة رقم (٢٨٤١).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٦٣/٧).

(٣) رواه أحمد (٢٣/٥)(٢٠٢٧١) وحسن إسناده الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٦٩).

(والأعمال الظاهرة لا تكون صالحة مقبولة إلا بتوسط عمل القلب)[٢].

فالأعمال الظاهرة التي منها أركان الإسلام كما في حديث جبريل المشهور لا تقبل ما لم تقرن بالنية، والإخلاص لله، وهما من أعمال القلوب، قال تعالى: ﴿ **وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ**﴾.

وقال ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات**» [٣].

كما أن عظم أجرها وتكفيرها الذنوب بحسب ما يصاحبها من أعمال قلبية.

فأما الشهادتان، فقد ذكرهما أهل العلم شروطًا من أعمال القلوب، مثل: الإخلاصن والصدق، والمحبة، واليقين، وأدلة هذه الشروط مذكورة في كتب التوحيد، كقوله ﷺ: «**فإن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله**»[٤].

وقوله ﷺ: «**ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا**

---

(١) الإيمان الأوسط ص(٢٢٣).

(٢) مجموع الفتاوى (١١/٣٨١).

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان (١). ومسلم في الإمارة (١٩٠٧).

(٤) البخاري (٤٢٥) ومسلم (٣٣).

رسول الله صدقًا من قلبه، إلا حرمه الله على النار»(١).

وقد أكذب الله المنافقين مع نطقهم بالشهادتين لما كان ما في قلوبهم مناقضًا لهما. يقول الله تعالى: ﴿ **إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ** ﴾ [المنافقون: ١].

وأما الصلاة فيقول الله تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ**﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣] وقوله تعالى: ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ**﴾[المؤمنون: ٢].

وأما الزكاة فيقول الله تعالى: ﴿ **وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴾[البقرة: ٢٦٥].

ويقول تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ** ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

وأما الصيام فلا يدخله الرياء، من جهة أنه سر بين العبد وبين ربه؛ إذ بإمكان الصائم الفطر في خلوته، لكن مع ذلك جاء ثوابه

---

(١) البخاري (١٢٨٩ ومسلم (٣٢).

مشروطًا بالإيمان والاحتساب في قوله ﷺ: «**من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر الله ما تقدم من ذنبه**»[١].

وأما الحج فيقول تعالى: ﴿ **وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلهِ** ﴾[البقرة: ١٩٦] وهو رحلة تعظيم لشعائر الله: ﴿ **ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ** ﴾ [الحج: ٣٢].

والتلبية التي هي شعار الحج تحي معاني الإخلاص والشكر والتعظيم، والتعبد المحض والانقياد المطلق لله تبارك وتعالى.

(١) أخرجه البخاري كتاب الصوم (٣٧) ومسلم كتاب الصلاة (٧٥٩).

المبحث الثاني
أعمال القلوب ومقاصد الشريعة

غاية الشريعة تعبيد الناس لرب العالمين ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** ﴾[الذاريات: ٥٦] وذلك بالطاعة المطلقة لله تعالى، مع كمال الحب والذل والخضوع له.

وقد بين الله جل وعلا أن من مقاصد بعثه النبي ﷺ تزكية النفوس، كما في قوله: ﴿ **هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ** ﴾ [الجمعة: ٢] ومعنى يزكيهم: (أي يجعلهم أزكياء القلوب بالإيمان) قاله ابن عباس [(١)].

وأصل التزكية بمعنى التطهير، وقد جاء في السنة ما يبين معنى التزكية، وأن طعم الإيمان لا يوجد إلا بها، وذلك في قوله ﷺ: «**ثلاث من فعلهن فقد طعم طعم الإيمان، من عبد الله وحده وأنه لا إله إلا الله، وأعطى زكاة ماله طيبة بها نفسه رافدة عليه كل عام، ولا يعطي الهرمة ولا الدرنة، ولا المريضة ولا الشرط اللئيمة ولكن من أوسط أموالكم، فإن الله لم يسألكم خيره، ولا يأمركم بشره، وزكى نفسه**» فقال رجل: وما تزكية النفس؟ فقال: (أن يعلم أن الله

---

١)) الجامع لأحكام القرآن (٩٢/١٨).

عز وجل معه حيث كان) [١].

وهذا المعنى وهو عبادة الله على الشهود والمراقبة من أعمال القلوب. والله عز وجل يدعو عباده إلى ما فيه صلاح قلوبهم، وكذلك دعوة رسوله ﷺ يقول سبحانه: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ** ﴾ [الأنفال: ٢٤].

(وقوله: ﴿ **يُحْيِيكُمْ** ﴾ وصف ملازم لكل ما دعا الله ورسوله إليه، وبيان لفائدته وحكمته، فإن حياة القلوب والروح بعبودية الله تعالى ولزوم طاعته وطاعة رسوله على الدوام) [٢].

ويقرر ابن تيمية أن القلب كلما ازداد حبًا لله، ازداد عبودية له، وكلما ازداد له عبودية، ازداد له حبًا وحرية عما سواه.

فالقلب لا يصلح، ولا يفلح، ولا يطمئن، إلا بعبادة ربه وحبه والإنابة إليه، والعبادة لا تحصل إلا بإعانة الله له، فهو دائمًا مفتقر إلى حقيقة: ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾.

(فإنه لو أعين على حصول ما يحبه ويطلبه ويشتهيه ويريده، ولم يحصل له عبادته لله، بحيث يكون هو غاية مراده ونهاية مقصوده وهو المحبوب له بالقصد الأول، وكل ما سواه إنما يحبه لأجله لا يحب شيئًا

---

(١) رواه الطبراني والبيهقي وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٠٤٦).

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص (٣١٨).

لذاته إلا الله، فمتى لم يحصل له هذا: لم يكن حقق حقيقة (لا إله إلا الله) ولا حقق التوحيد والعبودية والمحبة، وكان فيه من النقص والعيب بل من الألم والحسرة والعذاب بحسب ذلك).

ولو سعى في هذا المطلوب ولم يكن مستعينًا بالله متوكلاً عليه مفتقرًا إليه في حصوله لم يحصل له [(١)].

وكثير ممن تكلموا عن مقاصد الشريعة لم يعطوا هذا الجانب حقه، بل ربما أغفله بعضهم، عند كلامهم على مقاصد الشريعة في جلب المصالح ودرء المفاسد.

يقول ابن تيمية في سياق كلام له حول مراتب المصالح والمفاسد. (وكثير من الناس يقصر نظره عن معرفة ما يحبه الله ورسوله، من مصالح القلوب ومفاسدها، وما ينفعها من حقائق الإيمان وما يضرها من الغفلة والشهوة، كما قال الله تعالى: ﴿ **وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا** ﴾ [الكهف: ٢٨] وقال تعالى: ﴿ **فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى** ﴾[النجم: ٣٠]).

فتجد كثيرًا من هؤلاء في كثير من الأحكام لا يرى من المصالح والمفاسد إلا ما عاد لمصلحة المال والبدن، وغاية كثير منهم إذا تعدى

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/١٩٣، ١٩٤).

ذلك أن ينظر إلى سياسة النفس وتهذيب الأخلاق، بمبلغهم من العلم... وقوم من الخائضين في (أصول الفقه) وتعليل الأحكام الشرعية بالأوصاف المناسبة، إذا تكلموا في المناسبة وأن ترتيب الشارع بالأوصاف المناسبة يتضمن تحصيل مصالح العباد ودفع مضارهم، ورأوا أن المصلحة نوعان: أخروية، ودنيوية، جعلوا الأخروية ما في سياسة النفس وتهذيب الأخلاق من الحكم، وجعلوا الدنيوية ما تضمن حفظ الدماء والأموال والفروج والعقول والدين الظاهر، وأعرضوا عما في العبادات الباطنة والظاهرة من أنواع المعارف بالله، وملائكته وكتبه ورسله وأحوال القلوب وأعمالها، كمحبة الله، وخشيته وإخلاص الدين له، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته ودعائه، وغير ذلك من أنواع المصالح في الدنيا والآخرة وكذلك فيما شرعه الشارع من الوفاء بالعهود وصلة الأرحام، وحقوق المماليك والجيران، وحقوق المسلمين بعضهم على بعض، وغير ذلك من أنواع ما أمر به ونهى عنه: حفظًا للأحوال السنية وتهذيب الأخلاق ويتبين أن هذا جزء من أجزاء ما جاءت به الشريعة من المصالح) [(١)].

هذا وقد مثل شيخ الإسلام لما ذكره آنفًا بتحريم الميسر فإن ذلك ليس لكونه معاملة فاسدة، أو لمجرد كونه أكلاً للمال بالباطل؛

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٢/٢٣٣، ٢٣٤).

بل لأنه بنص القرآن يصد القلب عن ذكر الله وعن الصلاة [١].

ثم قال: (فتبين أن الميسر اشتمل على مفسدتين: مفسدة في المال وهي أكله بالباطل، ومفسدة في العمل وهي ما فيه من... فساد القلب والعقل وفساد ذات البين، وكل من المفسدتين مستقلة بالنهي، فينهى عن أكل المال بالباطل ولو كان بغير ميسر كالربا، وينهي عما يصد عن ذكر الله وعن الصلاة ويوقع العداوة والبغضاء ولو كان بغير أكل مال. فإذا اجتمعا عظم التحريم) [٢].

وبناء على ذلك قرر تحريم الشطرنج بدون عوض، معللاً بأنها (إذا استكثر منها، تستر القلب وتصده عن ذلك أعظم من ستر الخمر) [٣].

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٣٢/٢٣٤، ٢٣٥).

(٢) المصدر السابق (٣٢/٣٢٧).

(٣) المصدر السابق (٣٢/٢٤٥).

المبحث الثالث
أهمية العناية بالقلب تحلية وتخلية

العناية بالقلب لها جانبان:

التحلية: وذلك بالقيام بالطاعات القلبية.

والتخلية: وذلك بتطهير القلب عن أدناس المعاصي القلبية.

وإضافة لما تقدم ذكره في المطالب السابقة، فإن هذه العناية بشقيها تبرز أهميتها من خلال ما يأتي:

أولاً: قيام بفرض عيني:

العناية بالقلب وتحليته بالأعمال القلبية، كالتوكل والمحبة والإخلاص والخشية ونحوها كل ذلك من الفروض العينية.

وهكذا تطهيره من أدران الرياء والكبر وسوء الظن بالله والحسد ونحو ذلك. وقد تقدم تقرير ذلك في المبحث الأول.

ثانيًا: صلاح الجوارح بصلاح القلب:

القلب بصلاحه تصلح الجوارح وتستقيم على سبيل الهدي، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (القلب هو الأصل فإذا كان فيه معرفة وإرادة، سرى ذلك إلى البدن بالضرورة، لا يمكن أن يتخلف البدن عما يريده القلب، ولهذا قال النبي ﷺ: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر**

الجسد، ألا وهي القلب»[١]. وقال أبو هريرة: القلب ملك والأعضاء جنوده، فإذا طاب الملك طابت جنوده، وإذا خبث الملك خبثت جنوده، وقول أبي هريرة تقريب وقول النبي ﷺ أحسن بيانًا، فإن الملك وإن كان صالحًا، فالجند لهم اختيار قد يعصون ملكهم وبالعكس، فيكون فيهم صلاح مع فساده، أو فساد مع صلاحه، بخلاف القلب فإن الجسد تابع له، لا يخرج عن إرادته قط.. فإذا كان القلب صالحًا بما فيه من الإيمان علمًا وعملاً قلبيًا لزم ضرورة صلاح بالجسد بالقول الظاهر والعمل بالإيمان المطلق. كما قال أئمة أهل الحديث: قول وعمل. قول باطن وظاهر وعمل باطن وظاهر، والظاهر تابع للباطن لازم له متى صلح الباطن صلح الظاهر، وإذا فسد فسد، ولهذا قال من قال من الصحابة عن المصلي العابث: لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه) [٢].

وبهذا كان الأصل في التقوى والفجور القلب قال تعالى في الحديث القدسي: «**يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم**

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢) ومسلم (١٥٩٩).

(٢) مجموع الفتاوى (١٨٧/٧) الأثر أخرجه محمد بن نصر المروزي في تعظيم قدر الصلاة (١٩٤/١) برقم (١٥٠) من قول حذيفة بن اليمان، ثم أخرج نحوه عن سعيد بن المسيب (١٥١) وقد ضعف الأثرين محقق الكتاب وضعف الألباني الحديث من قول سعيد بن المسيب وحكم بوضعه مرفوعًا. انظر إرواء الغليل (٩٢/٢، ٩٣) رقم (٣٧٣) السلسلة الضعيفة رقم (١١٠).

وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئًا، ولو كانوا على أفجر قلب رجل منكم، ما نقص ذلك من ملكي شيئًا»[١].

قال ابن رجب في شرحه لهذا الحديث: (وفي هذا دليل على أن الأصل في التقوى والفجور هو القلب، فإذا بر القلب واتقى، برت الجوارح، وإذا فجر القلب فجرت الجوارح كما قال النبي ﷺ: «**التقوى ها هنا**» وأشار إلى صدره [٢][٣]).

ومن الناس من يجد في إقامة جوارحه على طاعة الله، وكفها عما حرم الله جهدًا وثقلاً، حتى إن بعضهم تحدثه نفسه بالاستقامة، لكن ما إن يسلك طريقها حتى يرجع القهقري.

ولو أتى هؤلاء البيوت من أبوابها، واجتهدوا مع العمل الظاهر في إصلاح قلوبهم، لهان عليهم سلوك سبيل الاستقامة، بل لوجدوا فيه اللذة والسعادة، وفي الحديث عن النبي ﷺ قال: «**إنما الأعمال كالوعاء، إذا طاب أسفله، طاب أعلاه، وإذا فسد أسفله، فسد أعلاه**»[٤].

---

(١) رواه مسلم (٢٥٦٤).

(٢) رواه مسلم (٢٥٧٧).

(٣) جامع العلوم والحكم (٢/٤٧).

(٤) رواه أحمد (١٦٩٧٨) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٧٣٤).

ثالثًا: كثرة نصوص الكتاب في ذكر القلب:

كثرت نصوص القرآن التي فيها ذكر القلب وطاعاته وأمراضه وأحواله فقد ذكر القلب في القرآن في مائة وثلاثين موضعًا.

ومن أوصافه المحمودة المذكورة في القرآن: سلامته، اطمئنانه، هدايته، الربط عليه، تقواه، العقل به سكينته، رأفته، رحمته، الخير فيه، طهارته، تزيين الإيمان فيه، إيمانه، وجله، ذهاب غيظه، إخباته، لينه، خشوعه، تأليف القلوب.

ومن أوصافه المذمومة: غلظه، الطبع عليه، إثمه، غفلته، الختم عليه رعبه، عدم فقهه، زيغه، عماه، اشمئزازه من ذكر الله وحده قفله، قسوته تزيين الباطل فيه، غلفه، كونه في أكنة، غله، مرضه، إشرابه بالباطل، حسرته، إباؤه الحق، ريبته وارتيابه، نفاقه، تقطعه، صرفه، الشد عليه، إنكاره الحق، لهوه، كونه في غمرة ، حميته الجاهلية، الران عليه [(١)].

رابعًا: القلب هو موضع نظر الله:

إن القلب هو موضع نظر الله جل وعلا، كما قال النبي ﷺ:

---

(١) لمعرفة الآيات التي فيها تلك الأوصاف يراجع المعجم المفرس لألفاظ القرآن ﷺ: ٥٤٩-٥٥١ مادة (قلب) وهذا الإحصاء وتلك الصفات هي لما ورد فيه ذكر لفظة القلب. وأما ما ذكر فيه أعماله دون لفظه فكثير سوى ما ذكر.

«إن الله لا ينظر إلى صوركم، ولا إلى أجسامكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»(١).

ويقول جل وعلا في شأن قرابين البدن: ﴿ **لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ** ﴾ [الحج: ٣٧].

ولذا فإن الأعمال تتفاضل عند الله بتفاضل ما في قلوب العاملين (٢).

وتبعًا لهذا التفاضل فإن تكفير الأعمال الصالحة للذنوب الوارد في النصوص يكمل أو ينقص بحسب ما في القلوب.

يقول ابن القيم: (فتفاضل الأعمال عند الله بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإخلاص والمحبة وتوابعها، وهذا العمل الكامل هو الذي يكفر تكفيرًا كاملاً، والناقص بحسبه، وبهاتين القاعدتين تزول إشكالات كثيرة، وهما: تفاضل الأعمال بتفاضل ما في القلوب من حقائق الإيمان، وتكفير العمل للسيئات بحسب كماله ونقصانه) (٣).

ومما يوضح هذا: الفرق العظيم بين صلاة المخلص الخاشع

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة (٢٥٦٤).

(٢) مجموع الفتاوى (٢١٢/٢٥).

(٣) الوابل الصيب ص (٢٨).

وصلاة المرائي أو الغافل.

قال حسان بن عطية: (إن الرجلين ليكونان في الصلاة الواحدة، وإن ما بينهما في الفضل كما بين السماء والأرض؛ وذلك أن أحدهما مقبل بقلبه على الله عز وجل والآخر ساه غافل) [١].

والمتأمل في الوحيين يجد أن الوعد بالجزاء الحسن على العمل الظاهر يأتي مشروطًا باقتران عمل قلبي به، ولذلك شواهد في الكتاب والسنة.

منها قوله تعالى: ﴿ **لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ [النساء: ١١٤].

وقوله ﷺ: «**إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله، إلا أجرت عليها، حتى اللقمة ترفعها إلى في امرأتك**»[٢].

وقوله ﷺ: «**من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا، غفر له ما تقدم من ذنبه**»[٣].

وقوله ﷺ: «**من قام رمضان إيمانًا واحتسابًا، غفر له ما تقدم**

---

(١) المصدر السابق ص (٥٠).

(٢) البخاري (٥٣٥٤) ومسلم (١٦٢٨).

(٣) البخاري (٣٨) ومسلم (٧٦٠).

من ذنبه»[١].

وقوله ﷺ: «**من توضأ نحو وضوئي هذا، ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه، غفر له ما تقدم من ذنبه**»[٢].

ولما كان القلب هو موضع نظر الله عز وجل، كانت الخيرية عنده بحسب سلامة القلب واستقامته، يقول ﷺ: «**خير الناس ذو القلب المخموم واللسان الصادق؟**» قيل: وما القلب المخموم؟ قال: «**هو التقى النقي الذي لا إثم فيه ولا بغي ولا حسد**». قيل: فمن على أثره؟ قال: «**الذي يشنأ الدنيا، ويحب الآخرة**»[٣] وشاهد ذلك من القرآن قوله سبحانه ﴿ **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾ [الحجرات: ١٣].

فقلب العبد الصالح هو إناء الله في الأرض يضع فيه الخيرات من الإيمان واليقين والمحبة وغيرها، وفي الحديث عنه ﷺ: «**إن لله تعالى آنية من أهل الأرض، وآنية ربكم قلوب عباده الصالحين، وأحبها إليه ألينها وأرقها**»[٤].

(١) البخاري (٣٧) ومسلم (٧٥٩).

(٢) البخاري (١٥٩) ومسلم (٢٢٦).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٤٢١٦) وهو في السلسلة الصحيحة الألباني (٩٤٨).

(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٦/٩٧) وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٦٩١).

خامسًا: العناية بالقلب سبب النجاة:

العناية بالقلب سبب النجاة في الآخرة ودخول الجنة، وقد دلت على ذلك أدلة الكتابة والسنة.

ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿ **يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٩٨].

وقوله: ﴿ **وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ** ﴾[ق: ٣١-٣٣].

وقوله: ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** ﴾ [العنكبوت: ٥٨، ٥٩].

وأحيانًا تذكر أعمال القلوب مقرونة بأركان الإسلام، ويرتب على ذلك الثواب العظيم، ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ** ﴾ [الأنفال: ٢-٤].

وقد قدم تعالى أعمال القلوب، لأنها أصل لأعمال الجوارح وأفضل منها[١].

وأحيانًا يعطف الله عمل القلب على الإيمان والعمل الصالح وهو من عطف الخاص على العام بيانًا لعظم منزلة العمل القلبي عند الله، يقول الله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾ [هود: ٢٣].

وفي حديث أنس بن مالك في قصة الرجل الذي قال فيه النبي ﷺ: «**يطلع الآن عليكم رجل من أهل الجنة**» وفيها أن عبد الله بن عمرو بن العاص تبعه، فبات معه ثلاث ليال، فلم يره يقوم من الليل شيئًا، غير أنه إذا تعار ذكر الله عز وجل وكبر حتى صلاة الفجر، فقال عبد الله: (غير أني لم أسمعه يقول إلا خيرًا) فلما مضت الثلاث، وكدت احتقر عمله، قلت: يا عبد الله، لم يكن بيني وبين أبي غضب ولا هجرة، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة**» فطلعت أنت الثلاث مرات، فأردت أن آوي إليك، فأنظر عملك فأقتدي بك، فلم أرك عملت كبير عمل، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ص؟ قال: (ما هو إلا ما رأيت، قال: فلما وليت دعاني، فقال: ما هو إلا ما رأيت، غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشًا ولا أحسد أحدًا على

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص (٣١٥).

خير أعطاه الله إياه) فقال عبد الله: هذه التي بلغت بك، وهي التي لا نطيق [(١)].

وتأمل يا أخي حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله تجد أنهم ذوو أعمال قلبية، نتجت منها أعمال ظاهرة، حازوا ذلك الفضل العظيم.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا في الله، اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله ورجل تصدق صدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه**»[(٢)].

فالإمام العادل: ما حمله على العدل وحجزه عن الظلم، وقد تمكن من الرقاب والأموال إلا خوفه من الله، واستشعاره لعظمة الموقف بين يدي الحكم العدل.

وأما الشاب الذي نشأ في عبادة الله فلم ينتصر على صبوة الشباب ونزوات نفسه إلا بمعان إيمانية قامت بقلبه.

---

(١) أخرجه أحمد (٣/١٦٦) وصحح إسناده الأرناؤوط في تحقيقه للمسند.

(٢) البخاري (٦٦٠) مسلم (١٠٣١).

وأما البقية، فقد أبان النبي ﷺ ما في قلوبهم من أعمال قلبية.

فمنهم المحب لله الذي عظمت تلك المحبة في قلبه، فتعلق قلبه ببيوت الله، وأحب الرجل لا يحبه إلا في الله.

ومنهم الخائف من الله الذي ثبت قلبه في موقف يضعف أمامه الأبطال، ومنهم المخلص لله في صدقته، ومنهم من امتلأ قلبه بتعظيم الله وإجلاله، ففاضت عيناه في خلوة، تجلى في عمله الإخلاص، والصدق مع الله.

سادسًا: الآفات القلبية سبب الخسران:

إن الآفات القلبية سبب في الخسارة في الآخرة ودخول النار.

وقد دلت على ذلك أدلة الكتاب والسنة.

ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿ **تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ [القصص: ٨٣].

وقوله في شأن أهل النار: ﴿**وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ**﴾ [الأعراف: ٧٩].

وقوله: ﴿ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴾[الفتح: ١٢].

وقوله: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [المائدة: ٤١].

وقوله: ﴿ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢].

وقوله: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ ﴾ [المطففين: ١٤-١٦].

فنصوص القرآن تدل على أنه (يجب على الإنسان أن يطهر قلبه تطهيرًا كاملاً من كل زغل وخبث وأن يعتني بطهارة قلبه أكثر مما يعتني بطهارة بدنه؛ لأن طهارة القلب عليها المدار، وبها تكون طهارة الأعمال الظاهرة) [1].

ومن السنة قوله ﷺ: «**ثلاثة لا تسأل عنهم: رجل ينازع الله إزاره، ورجل ينازع الله رداءه، فإن رداءه الكبر، وإزاره العز، ورجل**

(١) أحكام القرآن الكريم لابن عثيمين (٨٩، ٩٩).

في شك من أمر الله، والقنوط من رحمه الله»[١].

والحديث الذي رواه شفي الأصبحي (أنه دخل المدينة، فإذا هو برجل قد اجتمع عليه الناس، فقال: من هذا؟ فقالوا: أبو هريرة، فدنوت منه حتى قعدت بين يديه، وهو يحدث الناس، فلما سكت وخلا، قلت: أنشدك بحق وحق، لما حدثتني حديثًا سمعته من رسول ﷺ عقلته وعلمته، فقال أبو هريرة: أفعل لأحدثنك حديثًا حدثنيه رسول الله ﷺ وعلمته، ثم نشغ أبو هريرة نشغة فمكث قليلا، ثم أفاق فقال: لأحدثنك حديثًا حدثنيه رسول الله ﷺ في هذا البيت، ما معنا أحد غيري وغيره، ثم نشغ أبو هريرة نشغة أخرى، فمكث بذلك ثم أفاق ومسح وجهه قال: أفعل لأحدثنك بحديث حدثنيه رسول ﷺ وأنا وهو في هذا البيت، ما معنا أحد غيري وغيره، ثم نشغ أبو هريرة نشغة شديدة ثم مال خارًا على وجهه، فأسندته طويلاً ثم أفاق، فقال: حدثني رسول الله ﷺ: «**إن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة، نزل إلى العباد ليقضي بينهم، وكل أمة جاثية، فأول من يدعو به رجل جمع القرآن (وفي لفظ: رجل تعلم القرآن وعلمه وقرأ القرآن) ورجل يقتل في سبيل الله، ورجل كثير المال، فيقول للقارئ: ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي؟ قال: بلى يا رب،**

---

(١) أخرجه أحمد (١٩/٦) وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٥٤٢).

قال: فماذا عملت فيما علمت؟ قال: كنت أقوم به أثناء الليل وآناء النهار (**وفي لفظ: تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن فيقول الله له: كذبت وتقول الملائكة كذبت، ويقول الله: بل أردت أن يقال فلان قارئ**) **فقد قيل.** (**وفي لفظ: كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ فقد قيل**) **ويؤتى بصاحب المال فيقول الله: ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج لأحد؟ قال: بلى، قال: فما عملت فيما آتيتك؟ قال: كنت أصل الرحم وأتصدق، فيقول الله:كذبت، وتقول الملائكة: كذبت، فيقول الله: بل أردت أن يقال فلان جواد ، فقد قيل ذلك، ويؤتى بالذي قتل في سبيل الله، فيقال: فيما قتلت؟ فيقول: أمرت بالجهاد في سبيلك فقاتلت حتى قتلت، فيقول الله: كذبت وتقول الملائكة:كذبت، ويقول الله عز وجل له: أردت أن يقال فلان جرىء، فقد قيل ذلك** ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتي، فقال: «**يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة**»[(١)].

وفيه أن شفيًا دخل على معاوية فأخبره بهذا فقال صدق الله

---

(١) الحديث رواه ابن خزيمة واللفظ له (٢٤٢٨) والترمذي (٢٣٨٢) وقد صحح إسناده الألباني فى تعليقه على ابن خزيمة وأورده في صحيح الجامع برقم (٢٠١٠) وعزاه لأحمد ومسلم والنسائي والألفاظ بين القوسين منه.

ورسوله: ﴿ **مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [هود: ١٥، ١٦].

وفي حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يظهر الإسلام حتى تختلف التجار في البحر، وحتى تخوض الخيل في سبيل الله، ثم يظهر قوم يقرؤون القرآن، يقولون: من أقرأ منا؟ من أعلم منا؟ من أفقه منا؟** ثم قال لأصحابه: «**هل في أولئك من خير؟**» قالوا الله ورسوله أعلم قال: «**أولئك منكم، من هذه الأمة، وأولئك هم وقود النار**»[(١)].

فهذه النصوص النبوية تتضمن الوعيد الشديد على من تلبس بالكبر أو الشك أو القنوط أو الرياء أو العجب، وكل هذه آفات قلبية، وليس الغرض استقصاء النصوص في ذلك.

سابعًا: صلاح القلب وحلاوة الإيمان:

إن صلاح القلب سبب وجود حلاوة الإيمان: ولذة الطاعة، والسعادة في الدنيا.

---

(١) قال المنذري: رواه الطبراني في الأوسط بإسناد لا بأس به، ورواه أبو يعلي والبزار والطبراني أيضًا من حديث العباس بن عبد المطلب، وحسن الألباني الحديثين في صحيح الترغيب والترهيب (١/٨٥).

قال ﷺ: «**ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار**»[١].

وقال ﷺ: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولا**»[٢].

والمحبة والرضا من أعمال القلوب.

وما يعيشه كثير من الناس اليوم من قلق وآلام نفسية، وفقدان للسعادة من أعظم أسبابه ضعف محبة الله، والتوكل عليه في نفوسهم.

يقول ابن القيم رحمه الله: (فإنه لا نعيم للعبد ولا لذة ولا ابتهاج ولا كمال إلا بمعرفة الله ومحبته والطمأنينة بذكره، والفرح والابتهاج بقربه، والشوق إلى لقائه، فهذه جنته العاجلة، كما أنه لا نعيم في الآخرة ولا فوز إلا بجواره في دار النعيم في الجنة الآجلة).

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: إن في الدنيا جنة من لم يدخلها، لم يدخل جنة الآخرة.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان (٢١) ومسلم في كتاب الإيمان (٤٣) واللفظ له.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان (٣٤).

وقال بعض المحبين: مساكين أهل الدنيا خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها، قالوا: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله والأنس به، والشوق إلى لقائه، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه. وكل ما له قلب حي يشهد هذا، ويعرفه ذوقا) [١].

ومن لم يجد هذا فليبك على نفسه، وليسع في طلب أسباب حياة قلبه، وليعلم أن فقد حلاوة الطاعة أمارة دخل فيها.

يقول ابن القيم: (سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: إذا لم تجد للعمل حلاوة في قلبك فاتهمه؛ فإن الرب تعالى شكور، يعني أنه لا بد أن يثيب العامل عن عمله في الدنيا حلاوة يجدها في قلبه وقوة وانشراحًا وقرة عين، فحيث لم يجد ذلك فعمله مدخول) [٢].

وقد يقول قائل: لماذا لا يحصل الانشراح وقرة العين إلا بالإقبال على الله ظاهرًا وباطنًا؟

يقول ابن تيمية: (والقلب فقير بالذات إلى الله من وجهين من جهة العبادة وهي العلة الغائية ومن جهة الاستعانة والتوكل وهي العلة الفاعلة.

فالقلب لا يصلح ولا يفلح ولا ينعم ولا يسر ولا يلتذ ولا

---

(١) تهذيب مدارج السالكين ص (٢٤٥).

(٢) تهذيب مدارج السالكين ص (٣١٢).

يطيب ولا يسكن ولا يطمئن إلا بعبادة ربه وحبه والإنابة إليه، ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات، لم يطمئن ولم يسكن؛ إذ فيه فقر ذات إلى ربه من حيث هو معبوده ومحبوبه ومطلوبه، وبذلك يحصل له الفرح والسرور واللذة والنعمة والسكون والطمأنينة) [١].

ويقول ابن القيم: (ففي القلب شعث لا يلمه إلا الإقبال على الله، وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس به في خلوته، وفيه حزن لا يذهبه إلا السرور بمعرفته وصدق معاملته، وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه والفرار إليه وفيه نيران حسرات لا يطفئها إلا الرضا بأمره ونهيه وقضائه ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه.. وفيه فاقة لا يسدها إلا محبته والإنابة إليه ودوام ذكره، وصدق الإخلاص له، ولو أعطي الدنيا وما فيها، لم تسد تلك الفاقة منه أبدًا) [٢].

ثامنًا: إهمال القلب وسوء الخاتمة:

إن إهمال العناية بالقلب تحلية وتخلية سبب لسوء الخاتمة والعياذ بالله.

وقد أشار إلى ذلك النبي ﷺ فيما ثبت في الصحيحين من حديث سهل ابن سعد أنه قال: ﷺ: «**إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل**

(١) العبودية ص (١٠٨).

(٢) تهذيب مدارج السالكين ص (٥٦٦).

بعمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة» زاد البخاري: «**وإنما الأعمال بالخواتيم**»[١].

قال ابن رجب: (قوله: (فيما يبدو للناس) إشارة إلى أن باطن الأمر يكون بخلاف ذلك، وأن خاتمة السوء تكون بسبب دسيسة باطنة لا يطلع عليها الناس، إما من جهة عمل سيئ ونحو ذلك فتلك الخصلة الخفية توجب سوء الخاتمة عند الموت [٢].

وفي معرض كلام لابن الجوزي حول اليقين والرضا والصبر وهي من أعمال القلوب يقول: (ولابد من لقاء البلاء، ولو لم يكن إلا عند صرعة الموت، فإنها إن نزلت والعياذ بالله، فلم تجد معرفة توجب الرضا أو الصبر، أخرجت إلى الكفر).

ولقد سمعت بعض من كنت أظن فيه كثرة الخير، وهو يقول في ليالي موته: ربي هو ذا يظلمني!! فلم أزل منزعجًا مهتمًا بتحصيل عدة ألقى بها ذلك اليوم. كيف وقد روي أن الشيطان يقول لأعوانه في تلك الساعة: عليكم بهذا، فإن فاتكم لم تقدروا عليه.

وأي قلب يثبت عند إمساك النفس، والأخذ بالكظم ونزع النفس، والعلم بمفارقة المحبوبات إلى ما لا يدري ما هو، وليس في ظاهره، إلا القبر والبلى، فنسأل الله عز وجل يقينًا يقينا شر ذلك

(١) صحيح البخاري (٢٨٩٧) و (٦٦٠٧) ومسلم (١١٢).
(٢) جامع العلوم والحكم ص (١٧٢/١).

اليوم، لعلنا نصبر للقضاء أو نرضى به [١].

وليتفكر اللبيب في حاله لو نزل به مفجع أو أصابه مرض عضال، هل عنده من الإيمان واليقين ما يعينه على الرضا أو الصبر، فإن سلم من ذلك فلن يسلم من صرعة الموت ومعاناة سكرته، وقد كان من دعائه ﷺ: «**اللهم إني أعوذ بك من أن يتخبطني الشيطان عند الموت**»[٢]. اللهم احفظ علينا إيماننا، واختم لنا بالحسنى، وتولنا في الآخرة والأولى.

تاسعًا: صلاح القلب وبركة العمل:

إن صلاح القلب واستقامته يبارك العمل القليل، ويضاعف الأجور، وأعمال القلوب تستمر في وقت تنقطع فيه أعمال الجوارح، وفي ذلك ينقل ابن القيم عن أبي الدرداء رضي الله عنه قوله: (يا حبذا نوم الأكياس وفطرهم، كيف يغبنون قيام الحمقى وصومهم، والذرة من صاحب تقوى ويقين أفضل من أمثال الجبال من عبادة المغترين) [٣].

ثم يعلق ابن القيم على هذا فيقول: (وهذا من جواهر الكلام وأدلة على كمال فقه الصحابة، وتقدمهم على من بعدهم في كل

---

(١) صيد الخاطر ص (١٣٧).

(٢) أخرجه أحمد (٣٥٦/٢) وأبو داود (١٥٥٢) والنسائي (٥٥٣٢) وصححه الألباني.

(٣) أخرجه أحمد في كتاب الزهد (١٣٨/١٣٧) وأبو نعيم في الحلية (٢١١/١).

خير).

فاعلم أن العبد إنما يقطع منازل السير إلى الله بقلبه وهمته لا ببدنه، التقوى في الحقيقة هي تقوى القلوب لا تقوى الجوارح. قال تعالى: ﴿ **ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ** ﴾ [الحج: ٣٢] وقال تعالى: ﴿ **لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ**﴾[الحج: ٣٧] وقال النبي ﷺ: «**التقوى ههنا**» وأشار إلى صدره[١].

فالكيس يقطع من المسافة، بصحة العزيمة، وعلو الهمة، وتجريد القصد، وصحة النية، مع العمل القليل أضعاف أضعاف ما يقطعه الفارغ عن ذلك مع التعب الكثير والسفر الشاق [٢] .

ويبين رحمه الله عدم تناهي مضاعفة أجور الأعمال القلبية فيقول: (ومنها أن أعمال الجوارح تضاعف إلى حد معلوم محسوب، وأما أعمال القلوب فلا ينتهي تضعيفها؛ وذلك لأن أعمال الجوارح لها حد تنتهي إليه وتقف عنده، فيكون جزاؤها بحسب حدها، وأما أعمال القلوب فهي دائمة متصلة وإن تواري شهود العبد لها).

مثاله: أن المحبة والرضا حال المحب الراضي لا تفارقه أصلا، وإن تواري حكمها، فصاحبها في مزيد متصل، فمزيد المحب الراضي

---

(١) رواه مسلم (٢٥٦٤).

(٢) الفوائد ص (٢٠٨).

متصل بدوام هذه الحال له، فهو في مزيد لو فترت جوارحه، بل قد يكون مزيده في حال سكونه وفتوره أكثر من مزيد كثير من أهل النوافل بما لا نسبة بينهما.

فإن أنكرت هذا، فتأمل مزيد نائم بالله، وقيام غافل عن الله، فالله سبحانه إنما ينظر إلى القلوب والهمم والعزائم لا إلى صور الأعمال(١).

وقد ورد عن عبد الله بن المبارك قوله: (رب عمل صغير تعظمه النية، ورب عمل كثير تصغره النية) (٢).

عاشرًا: دوام آثار معاصي القلب:

كما أن طاعات القلب تصير حالاً مستمرة مع الشخص، فكذلك معاصيه، فالكبر مثلاً هو حال المتكبر، والحسد هو حال الحاسد مستمر معه.

ولما ذكر بعض العلماء شيئًا من الكبائر القلبية، كالكبر، والحسد، والغل، والرياء، قال: (وأمثال هذه يذم العبد عليها أعظم مما يذم على الزنا والسرقة وشرب الخمر ونحوها من كبائر البدن؛ وذلك لعظم مفسدتها وسوء أثرها ودوامه، فإن آثار هذه الكبائر ونحوها تدوم

---

(١) تهذيب مدارج الساكين ص (٣٨١).

(٢) أورده ابن رجب في جامع العلوم والحكم (٧١/١).

بحيث تصير حالاً وهيئة راسخة في القلب، بخلاف آثار معاصي الجوارح، فإنها سريعة الزوال، تزول بالتوبة والاستغفار والحسنات الماحية والمصائب المكفرة) [١].

حادي عشر: أعمال القلوب والآفات:

أعمال القلوب تسلم من الآفات لخفائها، فحب الله ورسوله ﷺ وإرادة وجه الله أمر محبوب لله ورسوله مرض لله ورسوله ص.

(والأعمال الظاهرة يدخلها آفات كثيرة، ولهذا كانت أعمال القلوب المجردة أفضل من أعمال البدن المجردة كما قيل: قوة المؤمن في قلبه وضعفه في جسمه والمنافق عكسه) [٢].

ولذا يقرر العز بن عبد السلام أن (أعمال القلوب وطاعتها مصونة من الرياء؛ إذ لا رياء إلا بأفعال ظاهرة ترى أو تسمع، والتسميع عام لأعمال القلوب والجوارح) [٣].

والمعنى أن محبة الله لا يدخلها الرياء من حيث كونها عملاً قلبيًا، لكن يمكن التسميع بأن يخبر الشخص بأنه يحب الله حبًا عظيمًا؛

---

(١) الزواجر عن اقتراف الكبائر (٧٩/١).

(٢) مختصر الفتاوى المصرية لابن تيمية ص (١١).

(٣) قواعد الأحكام (١٢٥/١).

ليحمده الناس.

ثاني عشر: بين أسر القلب وأسر البدن:

إن أسر القلب أعظم من أسر البدن، واستعباد القلب أعظم من استعباد البدن، وعبودية القلب هي التي يترتب عليها الثواب والعقاب، فإن من استعبد قلبه لغير الله، ضره ذلك، ولو كان في الظاهر ملك الناس.

وقد قال ﷺ: «**تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد القطيفة، تعس عبد الخميصة، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش، إن أعطي رضي، وإن منع سخط**»[1] وما هي إلا عبودية القلب بتعلقه بحطام الدنيا.

يقول ابن تيمية بعد ذكره هذا الحديث: (فسماه النبي ﷺ عبد الدرهم وعبد الدينار وعبد القطيفة وعبد الخميصة، وذكر ما فيه من دعاء وخبر، وهو قوله: (تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش) والنقش إخراج الشوكة من الرجل والمنقاش ما يخرج به الشوكة وهذه حال من إذا أصابه شر لم يخرج منه ولم يفلح؛ لكونه تعس وانتكس، فلا نال المطلوب ولا خلص من المكروه، وهذه حال من عبد المال، وقد وصف ذلك بأنه: (إذا أعطى رضي وإن منع سخط) كما قال

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٨٦).

تعالى: ﴿ **وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ** ﴾ فرضاهم لغير الله، وسخطهم لغير الله، وهكذا حال كل من كان متعلقًا برئاسة أو بصورة ونحو ذلك من أهواء نفسه، إن حصل له رضي وإن لم يحصل له سخط، فهذا عبد ما يهواه من ذلك، وهو رقيق له؛ إذ الرق والعبودية في الحقيقة هو رق القلب وعبوديته) [١] .

ويقول رحمه الله: (فالحرية حرية القلب، والعبودية عبودية القلب، كما أن الغنى غنى النفس. قال النبي ﷺ: «**ليس الغنى عن كثرة العرض، وإنما الغنى غنى النفس**»[٢].

وهذا لعمري إذا كان قد استعبد قلبه صورة مباحة، فأما من استعبد قلبه صورة محرمة: امرأة أو صبي، فهذا هو العذاب الذي لا يدان فيه، وهؤلاء من أعظم الناس عذابًا، وأقلهم ثوابًا، فإن العاشق لصورة إذا بقي قلبه متعلقًا بها، مستعبدًا لها، اجتمع له من أنواع الشر والفساد ما لا يحصيه إلا رب العباد، ولو سلم من فعل الفاحشة الكبرى، فدوام تعلق القلب بها بلا فعل الفاحشة أشد ضررًا عليه ممن يفعل ذنبًا ثم يتوب منه ويزول أثره من قلبه[٣].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/١٨٠، ١٨١).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٤٦) ومسلم (١٠٥١).

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية (١٠/١٨٦، ١٨٧).

ويقرر في موضع آخر أن (الزنا بالفرج أعظم من الإلمام بصغيرة، كنظرة وقبلة، وأما الإصرار على العشق ولوازمه من النظر ونحوه، فقد يكون أعظم من الزنا الواحد بشيء كثير) [(١)].

ولما ذكر ابن القيم هذا المعنى علله بأن الإصرار على الصغيرة قد يساوي إثمه إثم الكبيرة أو يزيد عليها، وبأن تعبد القلب للمعشوق شرك، وفعل الفاحشة معصية، ومفسدة الشرك أعظم من مفسد المعصية، وبأن العشق يعز التخلص منه [(٢)].

ثالث عشر: عرض الفتن على القلوب:

إن القلب هو المحل الذي تعرض عليه الفتن، وبحسب قبوله لها تعظم ظلمته، حتى يصل إلى أن لا يقبل الحق، ولا يعرف المعروف، ولا ينكر المنكر، بل يتبع هواه بغير هدى من الله.

وهذا حال كثير ممن وقع في الفتن وأشربها في قلبه، ولذا قل من يرجع عنها حتى يخوض غمارها، ويتلطخ بأقذارها، فإذا ولت مدبرة، استبان الصبح لكل ذي عينين، ولو أن هؤلاء المفتونين استناروا بالوحي من الكتاب والسنة، وما كان عليه سلف الأمة في فهمهما، ورجعوا إلى أهل العلم، لأنكرت قلوبهم الفتن من أولها، وسلموا من

---

(١) قاعدة في المحبة لابن تيمية ص (٧٧) وانظر: نحوه في إغاثة اللهفان (٢/١٥٠) الجواب الكافي ص (٣٠١).

(٢) انظر إغاثة اللهفان (٢/١٥١).

الولوغ فيها، لكنه الهوى المتبع، وإعجاب كل ذي رأي برأيه.

ويبين عرض الفتن على القلوب حديث حذيفة رضي الله عنه قال: كنا عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: أيكم سمع رسول الله ﷺ يذكر الفتن؟ فقال قوم: نحن سمعناه، فقال: «**لعلكم تعنون فتنة الرجل في أهله وماله وجاره؟**» قالوا: أجل. قال: «**تلك يكفرها الصلاة والصيام والصدقة**» ولكن أيكم سمع رسول الله ﷺ يذكر التي تموج كموج البحر؟ قال حذيفة: فسكت القوم، فقلت: أنا، قال: أنت لله أبوك؟ فقال حذيفة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**تعرض الفتن كالحصير عودًا عودًا، فأي قلب أشربها، نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء، حتى يصير على قلبين، على أبيض مثل الصفا، فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر: أسود مربادًا، كالكوز مجخيًا، لا يعرف معروفًا، ولا ينكر منكرًا إلا ما أشرب من هواه**»[(١)].

هذا وقد أرشد النبي ﷺ إلى أن الإخلاص ومناصحة ولي الأمر ولزوم الجماعة تقي القلب من الفتن.

يقول ﷺ: «**ثلاثة لا يغل عليهن قلب رجل مسلم أبدًا: إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم جماعة**

(١) مسلم (١٤٤) وأصله عن البخاري (٥٢٥).

المسلمين، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم»[١].

وقوله: (يُغل) من الإغلال، وهو الخيانة في كل شيء، ويروى (يَغل) من الغل، وهو الحقد والشحناء، أي لا يدخله حقد يزيله عن الحق، والمعنى أن هذه الخلال الثلاث تصلح بها القلوب، فمن تمسك بها طهر قلبه من الخيانة والدغل والشر [٢].

(١) رواه أحمد (٢١٩٢٤) وابن ماجه (٣٠٥٦) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٠٤).

(٢) انظر بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني (١/١٦٤).

المبحث الرابع
الارتباط بين الظاهر والباطن

تقدم في المطالب السابقة ما يبين عظم قدر الأعمال القلبية وأنها أصل لأعمال الجوارح، ولا يعني هذا التهوين من أعمال الجوارح الظاهرة؛ إذ إن هناك ارتباطًا قويًا بين الظاهر والباطن.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (وهذه الأمور الباطنة والظاهرة بينهما ارتباط ومناسبة؛ فإن ما يقوم بالقلب من الشعور والحال يوجب أمورًا ظاهرة، وما يقوم بالظاهر من سائر الأعمال يوجب للقلب شعورًا وأحوالاً)(١).

ويقول (إن الظاهر لابد له من باطن يحققه ويصدقه ويوافقه، فمن قام بظاهر الدين من غير تصديق بالباطن فهو منافق، ومن ادعى باطنًا يخالف ظاهرًا فهو كافر منافق، بل باطن الدين يحقق ظاهره، ويصدقه ويوافقه وظاهره يوافق باطنه، ويصدقه ويحققه، كما أن الإنسان لا بد له من روح وبدن، وهما متفقان فلا بد لدين الإنسان من ظاهر وباطن يتفقان، فالباطن للباطن من الإنسان، والظاهر للظاهر منه، والقرآن مملوء من ذكر أحكام الباطن والظاهر، والباطن أصل الظاهر) (٢).

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (١/٩٢).

(٢) مجموع الفتاوى (١٣/٢٦٨).

ويقول ابن القيم: (والله تعالى أمر عباده أن يقوموا بشرائع الإسلام على ظواهرهم، وحقائق الإيمان على بواطنهم، ولا يقبل واحدًا منهما إلا بصاحبه وقرينه.

وفي المسند مرفوعًا: «**الإسلام علانية، والإيمان في القلب**»[1].

فكل إسلام ظاهر لا ينفذ صاحبه منه إلى حقيقة الإيمان الباطنة، فليس بنافع حتى يكون معه شيء من الإيمان الباطن، وكل حقيقة باطنة، لا يقوم صاحبها بشرائع الإسلام الظاهرة، لا تنفع لو كانت ما كانت) [2].

ويبين شيخ الإسلام التأثير المتبادل بين أعمال القلوب وأعمال الجوارح فيقول: (إذا قام بالقلب التصديق به والمحبة له، لزم ضرورة، أن يتحرك البدن بموجب ذلك من الأقوال والأعمال الظاهرة).

فما يظهر على البدن من الأقوال والأعمال هو موجب ما في القلب ولازمه ودليله ومعلوله.

كما أن ما يقوم بالبدن من الأقوال والأعمال له أيضًا تأثير فيما في القلب، فكل منهما يؤثر في الآخر، لكن القلب هو الأصل،

---

(١) أخرجه أحمد (١٢٤٠٨) وصحح إسناده أحمد شاكر في تحقيق الطحاوية ص (٣٣١) وضعفه الألباني في تخريج الأيمان لابن تيمية ص (٥).

(٢) الفوائد: (٢٠٨).

والبدن فرع له، والفرع يستمد من أصله، والأصل يثبت ويقوى بفرعه)[(١)].

وما قرره شيخ الإسلام في النقول السابقة من أن القلب هو الأصل بينه في موضع آخر مفصلاً.

فذكر أن (كل ما أوجبه الله على العباد لا بد أن يجب على القلب؛ فإنه الأصل وإن وجب على غيره تبعًا، فالعبد المأمور المنهي إنما يعلم بالأمر والنهي قلبه، وإنما يقصد بالطاعة والامتثال القلب، والعلم بالمأمور والامتثال يكون قبل وجود الفعل المأمور به كالصلاة والزكاة والصيام، وإذا كان القلب قد أعرض عن معرفة الأمر وقصد الامتثال كان أول المعصية منه بل كان هو العاصي وغيره تبع له في ذلك، ولهذا قال في حق الشقي ﴿ **فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى * وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى** ﴾ وقال في حق السعداء: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا** ﴾ في غير موضع والمأمور نوعان:

(١) نوع هو عمل ظاهر على الجوارح، وهذا لا يكون إلا بعلم القلب وإرادته؛ فالقلب هو الأصل فيه، كالوضوء والأغسال وكأفعال الصلاة، من القيام والركوع والسجود، وأفعال الحج: من الوقوف والطواف، وإن كانت أقوالا، فالقلب أخص بها، فلا بد أن يعلم

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/٥٤١) وانظر الموافقات (١/٢٣٣).

القلب وجود ما يقول، أو بما يقول ويقصده.

ولهذا كانت الأقوال في الشرع لا تعتبر إلا من عاقل يعلم ما يقول ويقصده...

(٢) النوع الثاني: ما يكون باطنًا في القلب: كالإخلاص وحب الله ورسوله، والتوكل عليه، والخوف منه، وكنفس الإيمان القلب وتصديقه بما أخبر به الرسول، فهذا النوع تعلقه بالقلب ظاهر؛ فإنه محله، وهذا النوع هو أصل النوع الأول، وهو أبلغ في الخير والشر من الأول) [(١)].

ومن خلال النقول السابقة يتبين أنه من حيث اللزوم، فإن الإيمان الباطن يستلزم العمل الصالح الظاهر، ولا عكس كما هو شأن المنافقين.

وأما من حيث التأثير فإن كلاً من الظاهر والباطن يؤثر أحدهما في الآخر.

ومن أدلة كون الباطن يؤثر في الظاهر قوله ﷺ: «**ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»[(٢)].

---

(١) دقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية (١/٢٣٩-٢٤٢).

(٢) أخرجه البخاري (٥٢) ومسلم (١٥٩٩).

ومن عظم خطر المعاصي القلبية آثارها السيئة على الأعمال الظاهرة، فكم من مكثر من العمل الصالح الظاهر، حرم خير عمله بدسيسة في قلبه.

ومن شواهد ذلك أن الرياء سبب في حبوط العمل وعدم قبوله، وفي الحديث القدسي: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه**»[(١)].

والكبر -لو كان قليلاً- مانع من دخول الجنة، فمن أتى بسبب دخول الجنة وهو العمل الصالح فليحذر المانع، يقول ﷺ: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**»[(٢)].

والحسد يؤثر في الحسنات، ورد أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الحسد يطفئ نور الحسنات**»[(٣)].

والمن بالقلب واللسان مبطل الصدقات قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ**

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٨٥).

(٢) أخرجه مسلم (٩١).

(٣) رواه أبو يعلي في مسنده (٦/٣٦٦) وحسن إسناده محققه، وقال الألباني: إسناده يحتمل التحسين انظر:السلسلة الضعيفة (٧/٤٦٨) وفي الباب حديث (إياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب) رواه أبو داود (٤٩٠٣) وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (١٩٠٢).

رِئَاءَ النَّاسِ ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

وأما كون الأعمال الظاهرة تؤثر في الباطن، فمن أدلته قوله سبحانه: ﴿**وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ * فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾[المائدة: ١٢-١٣].

وقوله ﷺ: «**لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه**»(١).

وقوله ﷺ: «**لتسوون صفوفكم، أو ليخالفن الله بين وجوهكم**»(٢).

وقوله ﷺ: «**من ترك ثلاث جمع تهاونًا، طبع الله على**

---

(١) سبق تخريجه ص (٢٩).

(٢) رواه مسلم (٤٣٦).

قلبه»[١].

وقد ورد أن رجلاً شكى إلى رسول الله ﷺ قسوة القلب، فقال له: «**إن أردت أن يلين قلبك، فأطعم المسكين، وامسح رأس اليتيم**»[٢].

وبهذا يتبين أنه لا غنى للمسلم عن أعمال القلب وأعمال الجوارح، فبيان عظم قدر أعمال القلوب لا يعني التقليل من أهمية أعمال الجوارح.

والناس في هذا بين إفراط وتفريط، وقد أورد ابن القيم قول بعض السلف: (ما أمر الله تعالى بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان: إما إلى تفريط أو تقصير، وإما غلو أو مجاوزة، ولا يبالي بأيهما ظفر).

ثم ذكر أمثلة على ذلك من واقع الناس، ومنها قوله: (وقصر بقوم أهملوا أعمال القلوب، ولم يلتفتوا إليها، وعدوها فضلاً، أو فضولاً.

---

(١) رواه أحمد (١٥٥٨٠) وأبو داود، (١٠٥٢) وصححه الألباني في الترغيب والترهيب (٧٢٩).

(٢) رواه أحمد (٧٥٦٦) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٨٥٤).

وتجاوز بآخرين حتى قصروا نظرهم وعملهم عليها، ولم يتلفتوا إلى كثير من أعمال الجوارح، وقالوا: العارف لا يسقط وارده لورده) [١].

(١) إغاثة اللهفان (١/١١٦-١١٨).

الفصل الثالث
القيام بالأعمال القلبية
علمًا وعملاً

وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول: حكم تعلم علم القلب.

المبحث الثاني: كيفية القيام بالأعمال القلبية.

المبحث الثالث: نبذة في وسائل إصلاح القلب.

المبحث الرابع: وجوب لزوم السنة في طريق إصلاح القلب.

المبحث الخامس: إنكار منكرات القلوب وخطأ التشبيط عن الخير حذر الرياء.

المبحث الأول
حكم تعلم علم القلب

علم أعمال القلوب من علوم النبوة التي نقلها إلينا الصحابة، يقول ابن تيمية: (كما إن علم النبوة من الإيمان والقرآن وما يتبع ذلك من الفقه والحديث وأعمال القلوب إنما خرجت من الأمصار التي يسكنها جمهور أصحاب رسول الله ﷺ)[(١)].

وقد ذكر النووي في معرض كلام له عن حكم تعلم العلوم أن (علم القلب كالحسد والعجب والرياء وشبهها) فيه قولان:

الأول: أن معرفة حدودها وأسبابها وطبها وعلاجها فرض عين، وهو قول الغزالي.

واستدل لهذا بأن معرفة كبائر القلب واجب (ليعالج زوالها، لأن من كان في قلبه مرض منها لم يلق الله والعياذ بالله بقلب سليم)[(٢)].

الثاني: التفصيل (فمن رزق قلبًا سليما من هذه الأمراض المحرمة كفاه ذلك، ومن لم يسلم وتمكن من تطهير قلبه بغير تعلم العلم المذكور وجب تطهيره، وإن لم يتمكن إلا بتعلم وجب) ونسب هذا القول لغير الغزالي[(٣)].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/٣٦١) وانظر: المصدر نفسه (١٣/٣٩٠).

(٢) الدليل في الزواجر عن اقتراف الكبائر (١/٧٩).

(٣) روضة الطالبين (١٠/٢٢٤) الأشباه والنظائر للسيوطي ص (٤١٦).

ويمكن الاستدلال للقول الثاني بأن الوسائل لها حكم الغايات، وتخليص القلب من تلك الآفات واجب، فإن لم يكن له طريق سوى التعلم وجب، أما إذا كان القلب سليمًا منها، أو تمكن من تطهير قلبه بوسيلة غير التعلم فلا وجه حينئذ لإيجاب التعلم عليه.

وبهذا يتبين أن الثاني هو الراجح.

والتفصيل المتقدم في أمراض القلوب جار في فرائض القلب، فالتوكل مثلاً من رزقه الله حسن التوكل لم يحتج لتعلم أسباب تحصيله، ومن ضعف توكله عن القدر الواجب، فعليه أن يسعى في تحقيق التوكل، ويجب عليه تعلم أسباب ذلك إن لم يمكنه إصلاح قلبه إلا بذلك.

ولابن القيم تفصيل في فرض العين من العلم، وفيه قوله: (والواجب في العمل: معرفة موافقة حركات العبد الظاهرة والباطنة الاختيارية للشرع أمرًا وإباحة).

والواجب في الترك: معرفة موافقة الكف والسكون لمرضاة الله.. وقد دخل في هذه الجملة علم حركات القلوب والأبدان [(١)].

---

(١) مفتاح دار السعادة ص (١٧٠-١٧٣).

المبحث الثاني
كيفية القيام بالأعمال القلبية

من قواعد الشرع أن ما لا يدخل تحت القدرة لا يكلف الإنسان به.

ومن هنا قد يرد إشكال حول التكليف بالأعمال القلبية.

ويزول هذا الإشكال بمعرفة أن التكليف بها -أمرًا أو نهيًا- تكليف بأسباب تحصيلها إن كانت طاعات، أو بأسباب تنقية القلب منها إن كانت سيئات، مع تجنب الأسباب المخلة بسلامة القلب عمومًا [(١)].

وفي الكتاب والسنة إرشاد إلى هذه الأسباب وتلك.

فمن الدعوة إلى ما يحيي القلب ويصلحه قوله سبحانه ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ** ﴾ [الأنفال: ٢٤].

فقوله: ﴿ **لِمَا يُحْيِيكُمْ** ﴾: هذا (وصف ملازم لكل ما دعا الله ورسوله إليه، وبيان لفائدته وحكمته، فإن حياة القلب والروح بعبودية الله تعالى ولزوم طاعته وطاعة رسوله على الدوام) [(٢)].

---

(١) انظر: الموافقات (١١١/٢) الوجيز في أصول الفقه (٧٨).

(٢) تيسير الكريم الرحمن للسعدي ص (٣١٨).

ومنها قوله: ﴿ **خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾[التوبة: ١٠٣].

ومنها قوله: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ [البقرة: ١٨٣] وقد تقدم أن التقوى تقوى القلوب قبل الجوارح.

ومن الأسباب التفصيلية التي يحصل بها بعض الأعمال القلبية ذكر الله، فهو سبب في طمأنينة القلب وحياته، قال تعالى: ﴿ **أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** ﴾ [الرعد: ٢٨].

وقال ﷺ: «**مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه كمثل الحي والميت**»(١).

وقراءة القرآن سبب في تقوية محبة الله ورسوله ﷺ، ورد عنه ﷺ أنه قال: «**من سره أن يحب الله ورسوله، فليقرأ في المصحف**»(٢).

ومن ذلك الإرشاد إلى إخفاء النوافل طلبًا لسلامة النية، وحذرًا

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٠٧) ومسلم (٧٧٩) بنحوه.

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٢٠٩/٧) وابن عدي (١١١/٢) وحسن إسناده الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٢٣٤٢).

من نوازع الرياء، فمن ضمن السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: (رجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه) [1].

ومنها قوله ﷺ: «**انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من فوقكم، فهو أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم**»[2].

وقوله ﷺ: «**ألا أخبركم بما يذهب وحر الصدر: صوم ثلاثة أيام من كل شهر**»[3].

هذه شواهد، وسيأتي ذكر المزيد عند الكلام عن الأسباب التي يصلح بها القلب إن شاء الله .

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٠) ومسلم (١٠٣١).

(٢) أخرجه أحمد (١٠٢٥١) وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٥٠٧).

(٣) أخرجه النسائي (٢٣٨٥) وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي (٢٢٤٩).

المبحث الثالث
نبذة في أسباب صلاح القلب

لعل من المناسب الإشارة إلى نبذة في أسباب صلاح القلب؛ لتكون نبراسًا لمن عزم على السير في هذا الطريق، وسمت همته إلى المطالب العليا.

وقبل ذكرها أشير إلى أنه لابد للانتفاع والعمل بها من أمرين:

(١) علو الهمة وصدق العزيمة على تزكية النفس وإصلاح القلب (وصاحب الهمة العالية أمانيه حائمة حول العلم والإيمان والعمل الذي يقربه إلى الله ويدنيه من جواره) [(١)]، (ومثل القلب مثل الطائر، كلما علا، بعد عن الآفات، وكلما نزل، احتوشته الآفات) [(٢)].

ومما يعين على علو الهمة إعلاء القدوة بصحبة أهل القلوب الربانية، وحضور مجالسهم، فإن عز وجودهم، فليصحبهم في كتب السير، ففي سيرة نبينا محمد ﷺ وأصحابه وسلف الأمة وصالحيها عبرة، لكل مدكر، ومنارًا لكل طالب أسوة.

فعن النبي ﷺ قال: «**قال الله تبارك وتعالى: وجبت محبتي للمتحابين فيّ والمتجالسين فيّ والمتزاورين فيّ والمتباذلين**

(١) تهذيب مدارج السالكين (٢٤٧).

(٢) الجواب الكافي (٧٠).

فيّ»[١].

(٢) توطين النفس على الخروج عن العوائد الصادة عن سبيل الهدي، وذلك أن الإنسان قد يكون اعتاد في يومه وليلته على أعمال ومخالطات وقضاء أوقات فيما لا ينفع، أو فيما يصد عما هو أنفع، ومفارقة المألوف من أشق الأشياء على النفس . يقول ابن القيم بعد أن ذكر أسباب الفلاح: (لا يغتر العبد بأن مجرد علمه بما ذكر كاف في حصول المقصود، بل لا بد أن يضيف إليه بذل الجهد في العمل، واستفراغ الوسع والطاقة في ذلك، وملاك ذلك الخروج عن العوائد؛ فإنها أعداء الكمال والفلاح، ويستعين على ذلك بالهروب من مظان الفتنة، والبعد عنها ما أمكنه)[٢].

هذا وقد تقدم أن الشريعة جاءت لإحياء القلوب وتطهيرها من الآفات، فكل ما شرعته يحقق هذا المقصد[٣]. ولكن هناك أسباب خاصة لها تأثير خاص في إصلاح القلب لعل من أبرزها الأسباب التالية:

(١) الاستعانة بالله جل وعلا تحقيقًا لقوله سبحانه: ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ .وقوله تعالى: ﴿ **فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ** ﴾

(١) رواه أحمد (٢٢٣٨٠) وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٥٠١١).

(٢) عدة الصابرين (٨٦، ٨٧).

(٣) راجع ما تقدم ص (٣٠).

وعملا بوصية رسول الله ﷺ لحبيبه معاذ (فعن معاذ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أخذ بيده وقال: «**يا معاذ والله إني لأحبك** » فقال: «**أوصيك يا معاذ لا تدعن في دبر كل صلاة تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**»[١]. وكما أن هذا الدعاء مشروع أدبار الصلوات فهو مشروع مطلقًا، وهو غاية الاجتهاد في الدعاء، قال ﷺ: «**أتحبون أن تجتهدوا في الدعاء؟ قولوا: اللهم أعنا على شكرك وذكرك وحسن عبادتك**»[٢].

فالعبد يستعين بربه على عبادته، وهذه الاستعانة تتجلى في أمرين:

(أ) التوكل على الله في صلاح القلب، فيعتمد المؤمن على الله وحده في صلاح قلبه، ويشعر بالافتقار والاضطرار إلى الله جل وعلا في استقامة قلبه على طاعته ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ** ﴾ [فاطر: ١٥] ويستشعر أنه لو وكله الله إلى نفسه وجهده هلك لا محالة.

وهذا التوكل هو توكل أرباب الهمم العالية الذين يجعلون توكلهم

---

(١) أخرجه أبو داوود (١٥٢٢) النسائي (٥٣/٣) وصحح إسناده النووي في الأذكار ص (١٤٢).

(٢) أخرجه أحمد في المسند، الفتح الرباني (٥٥/٤) وهو في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٨٤٤).

في تحصيل العلم والإيمان والدعوة والجهاد.

(ب) الدعاء تضرعًا وخيفة، ولا يخفى فضل الدعاء وعظيم أثره، لكن كثيرًا من الناس يغفلون عن الدعاء بصلاح قلوبهم.

يقول ابن القيم: (العجب ممن تعرض له حاجة فيصرف رغبته وهمته فيها إلى الله ليقضيها له، ولا يتصدى للسؤال لحياة قلبه من موت الجهل والإعراض، وشفائه من داء الشهوات والشبهات، ولكن إذا مات القلب لم يشعر بمعصيته) [(١)].

وكثيرون يغفلون عن قصد التقرب إلى الله بالدعاء، ويكون قصدهم منصرفًا إلى حصول مطلوبهم، فيفوتهم خير عظيم [(٢)].

والدعاء سبب جامع لصلاح القلب تحلية وتخلية، يقول مطرف بن عبد الله: (تذاكرت ما جماع الخير؟ فإذا الخير كثير: الصيام والصلاة، وإذا هو في يد الله تعالى. وإذا أنت لا تقدر على ما في يد الله إلا أن تسأله فيعطيك فإذا جماع الخير الدعاء) [(٣)].

فمن لجأ إلى الله، وانطرح بين يديه سائلا صلاح قلبه، داعيًا بحضور قلب، متحريًا أوقات الإجابة، فما أقرب أن يجاب وقد قال

---

(١) الفوائد (٣١٥).

(٢) انظر: مجموع الفوائد لابن سعدي ص (٨٤).

(٣) مدارج السالكين (٧٦/٣).

ﷺ: «**إن الإيمان ليخلق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب، فاسألوا الله أن يجدد الإيمان في قلوبكم**»(١).

وإليك يا أخي طائفة من الأدعية الواردة في الكتاب والسنة مما يتعلق بصلاح القلب لتعرف من خلالها عظم اهتمام الشريعة بهذا الأمر ولتتعبد الله بها فإن في الأدعية المأخوذة من مشكاة القرآن والسنة من الجلال والجمال والتأثير ما ليس في غيرها (٢).

(اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحيني ما علمت الحياة خيرًا لي، وتوفني إذا علمت الوفاة خيرًا لي، اللهم وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة... وأسألك الرضا بعد القضاء. وأسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك، في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين) (٣).

- اللهم جدد الإيمان في قلوبنا.

- ﴿ **رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ** ﴾.

---

(١) الحديث أخرجه الحاكم (٤/١) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٥٨٥).

(٢) الأدعية استفدتها من كتاب: التذكرة بأذكارالحج والعمرة وأدعية القرآن والسنة، وقد تحرى مؤلفه ما ثبت في السنة كما ذكر في مقدمة كتابه.

وانظر: طائفة منها في ترتيب صحيح الجامع الصغير (٤٣١/٣-٤٤٥).

(٣) لابن رجب رسالة في شرح هذا الدعاء مطبوعة.

- ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾.

- اللهم أني أسألك اليقين والمعافاة.

- اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى.

- اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا.

- اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك.

- اللهم إني أعوذ بك من قلب لا يخشع.

- يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك.

- ﴿ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [الحشر: ١٠].

- ربي اجعلني لك ذكارًا، لك شكارًا، لك رهابًا، لك مطواعًا، لك مخبتًا، لك أواهًا منيبًا، واهد قلبي، وسدد لساني، واسلل سخيمة صدري.

- الله إني أعوذ بك من القسوة والغفلة والذلة والمسكنة، وأعوذ بك من الفقر والكفر والفسوق والشقاق والسمعة والرياء.

- اللهم إني عبدك، وابن عبدك، وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض فيّ حكمك، عدل فيّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك،

سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي.

- اللهم إني أسألك قلبًا سليمًا.

- نعوذ بالله من الفتن، ماظهر منها وما بطن.

- اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء.

- اللهم أعني على شكرك وذكرك وحسن عبادتك.

- اللهم إني أسألك حبك، وحب من يحبك، وحب عمل يقرب إلى حبك.

(٢) تلاوة كتاب الله بالتدبر والتفهم لمعانيه، فالقراءة بالتدبر من أعظم ما يصلح القلب ويشفيه من أمراض الشبهات والشهوات، لما في القرآن من البراهين الجلية والمواعظ البليغة.

يقول الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [يونس: ٥٧].

والموعظة التي بها شفاء القلوب هي القرآن.

ويقول سبحانه:﴿ **وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ**

لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء: ٨٢].

وقد سمى الله القرآن روحًا في قوله: ﴿ **وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا** ﴾ [الشورى: ٥٢] لأنه تحيا به القلوب، كما أن الروح يحيا بها البدن.

وأوصى نبينا ﷺ بتلاوة القرآن، وجعله روحًا للمؤمن، عن أبي سعيد الخدري أن رجلاً جاءه فقال: أوصني، فقال: سألت عما سألت عنه رسول الله ﷺ قبلك، فقال: «**أوصيك بتقوى الله، فإنه رأس كل شيء، وعليك بالجهاد، فإنه رهبانية الإسلام، وعليك بذكر الله وتلاوة القرآن، فإنه روحك في السماء، وذكرك في الأرض**»[١].

ومما يدل على أن ذلك هو الطريق إلى محبة الله قوله ﷺ: «إن لله أهلين من الناس» قالوا: يا رسول الله: من هم؟ قال: «**هم أهل القرآن، أهل الله وخاصته**» [٢].

وأهل القرآن هم العاملون به العاملون بما فيه وإن لم يحفظوه عن ظهر قلب، وأما من حفظه ولم يفهمه ولم يعمل بما فيه، فليس من

---

(١) رواه أحمد (١١٧٩٦) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم (٥٥٥).

(٢) رواه أحمد (١٢٣٠٤) وابن ماجه (٢١٥) وصححه الألباني

أهله وإن أقام حروفه إقامة السهم [(١)].

والله جل وعلا يقول: ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** ﴾ [الرعد: ٢٨].

وقد قيل: إن الذكر هنا هو ذكر العبد ربه بأنواع الذكر، وقيل إن المراد بذكر الله هنا هو القرآن، والأرجح أنه يشمل الأمرين، وتلاوة القرآن من ذكر الله.

وقد اختار ابن القيم القول الثاني وقال: (فإن القلب لا يطمئن إلا بالإيمان واليقين ولا سبيل إلى حصول الإيمان واليقين إلا من القرآن فإن سكون القلب وطمأنينته من يقينه، واضطرابه وقلقه من شكه، والقرآن هو المحصل لليقين الدافع للشكوك والظنون والأوهام، فلا تطمئن قلوب المؤمنين إلا به) [(٢)].

وكثير من يقرأ القرآن ولكن القليل من يتدبره، والله جل وعلا أمر بالتدبر وهو زائد على مجرد القراءة: ﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا** ﴾[محمد: ٢٤].

وتدبر القرآن يزيد في علوم الإيمان وشواهده، ويقوي الإرادة القلبية، ويحث على أعمال القلوب من التوكل والإخلاص والتعلق بالله

---

(١) زاد المعاد (١/٣٣٨).

(٢) التفسير القيم (٣٢٤).

الذي هو أصل الإيمان[١] .

ولا يتم الانتفاع بالقرآن إلا مع التدبر قال تعالى: ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ** ﴾ [ق: ٣٧].

يقول ابن القيم: (إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته، وألق سمعك، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم سبحانه منه إليه

فإذا حصل المؤثر وهو القرآن، والمحل القابل وهو القلب الحي، ووجد الشرط وهو الإصغاء، وانتفى المانع وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب وانصرافه عنه إلى شيء آخر، حصل الأثر وهو الانتفاع بالقرآن والتذكر) [٢].

والتدبر يقوم على أمرين: الفهم، والاتعاظ، وطريق الفهم معرفة اللسان العربي ومراجعة كتب التفسير فيما يشكل، وطريق الاتعاظ إزالة الحجب والأقفال التي تمنع تفاعل القلب مع مواعظ القرآن، وتخير أوقات الصفاء والفراغ من مشاغل الدنيا، ولذا كان في التلاوة ليلاً ميزة، قال تعالى: ﴿ **إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا** ﴾ [المزمل: ٦].

---

(١) مجموع الفوائد لابن سعدي (٨٠).

(٢) التفسير القيم (٤٤٣، ٤٤٤).

وناشئة الليل (أي الصلاة فيه بعد النوم) أقرب إلى تحصيل مقصود القرآن يتواطأ على القرآن القلب واللسان، وتقل الشواغل، ويفهم ما يقول، ويستقيم له أمره، وهذا بخلاف النهار فإنه لا يحصل به هذا المقصود) [١].

ولقد رسم لنا الصحابة منهجًا في تدبر القرآن، يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه (كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات، لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن، والعمل بهن) [٢].

قال الحسن البصري: (أنزل القرآن ليتدبر ويعمل به، فاتخذوا تلاوته عملا) [٣].

(٣) دوام ذكر الله عز وجل على كل حال، باللسان والقلب، فنصيب المؤمن من حياة القلب وطمأنينته ومحبته لربه على قدر نصيبه من الذكر.

يقول تعالى: ﴿ **أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** ﴾ ويقول ﷺ: «**مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه كمثل الحي**

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٨٩٣).

(٢) أخرجه أحمد (٢٣٨٧٨) بسند حسن.

(٣) انظر: تهذيب مدارج السالكين (٢٤٣) وفيه مزيد بيان لما تضمنه القرآن مما فيه صلاح القلب.

والميت»[١].

ويقول ﷺ: «**إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة»**[٢].

يقول ابن القيم: (وقد جعل الله لكل شيء سببًا، وجعل سبب المحبة دوام الذكر، فمن أراد محبة الله عز وجل فليلهج بذكره.. وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول: الذكر للقلب مثل الماء للسمك، فكيف حال السمك إذا فارق الماء؟... والذكر قوت القلوب والروح فإذا فقده العبد صار بمنزلة الجسم إذا حيل بينه وبين قوته، وحضرت شيخ الإسلام ابن تيمية مرة صلى الفجر، ثم جلس يذكر الله تعالى إلى قريب من انتصاف النهار، ثم التفت إلي، وقال: هذه غدوتي، ولو لم أتغد هذا الغداء لسقطت قوتي) [٣].

ويقول: (إذا حملت القلب هموم الدنيا وأثقالها، وتهاونت بأوراده التي هي قوته وحياته، كنت كالمسافر الذي يحمل دابته فوق طاقتها ولا يوفيها علفها، فما أسرع أن تقف به) [٤].

وأقل ذلك أن يحافظ المسلم على الأذكار أدبار المكتوبات،

---

(١) رواه البخاري (٦٤٠٧).

(٢) رواه مسلم (٢٧٠٢).

(٣) الوابل الصيب ص (٩٢، ٩٣).

(٤) الفوائد ص (٧٦).

وأذكار الصباح والمساء، وأذكار الأحوال المتنوعة، وهي مدونة في كتب السنة والأذكار.

وليحذر المسلم من الأوراد المخترعة، فكثير منها لا يخلو من مخالفة للشريعة، ولو سلمت فالتزام ما لم يرد؛ وما يتضمنه ذلك من تفضيله على الوارد، مسلك غير محمود العاقبة، وفيه فتح لباب البدعة على مصراعيه، فعليك بالاتباع، واحذر الابتداع، ففيما صح من سنة إمام المتقين، وقدوة الذاكرين غنية وعصمة.

(وأفضل الذكر ما تواطأ عليه القلب واللسان، وإنما كان ذكر القلب وحده أفضل من ذكر اللسان وحده؛ لأن ذكر القلب يثمر المعرفة، ويهيج المحبة ويثير الحياء، ويبعث على المخافة، ويدعو إلى المراقبة، ويردع على التقصير في الطاعات، والتهاون في المعاصي والسيئات، وذكر اللسان وحده لا يوجب شيئًا من تلك الأثمار، وإن أثمر شيئًا منها فثمرة ضعيفة) (١).

(٤) طلب العلم الشرعي، وحضور مجالس العلماء وحلقهم، فإن العبد كلما ازداد علمًا ازداد خشية لله وتعظيمًا له: ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾.

وتأمل المقابلة بين أصحاب القلوب المريضة والقاسية، والذين

---

(١) الوابل الصيب ص (١٩٠) ويراجع هذا الكتاب في فوائد الذكر.

أوتوا العلم المخبتين في قول ربنا تبارك وتعالى: ﴿ **لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ * وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللهَ لَهَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** ﴾ [الحج: ٥٣، ٥٤].

يقول ابن القيم: (وأما العلماء بالله وأمره فهم حياة الوجود وروحه، لا يستغنى عنهم طرفة عين.. فالعلم للقلب مثل الماء للسمك، إذا فقده مات. فنسبة العلم إلى القلب كنسبة ضوء العين إليها، وكنسبة سمع الأذن وكنسبة كلام اللسان إليه، فإذا عدمه كان كالعين العمياء، والأذن الصماء، واللسان الأخرس؛ ولهذا يصف الله أهل الجهل بالعمي والصم والبكم، وذلك صفة قلوبهم حيث فقدت العلم النافع فبقيت على عماها وصممها وبكمها ﴿ **وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا** ﴾ [الإسراء: ٧٢] والمراد عمى القلب في الدنيا) [١].

وطالب العلم متى خلصت نيته، كان ذلك طريقه إلى الربانية ﴿**وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ** ﴾ [آل عمران: ٧٩].

---

(١) مفتاح دار السعادة (١٢١/١).

يقول ابن تيمية: (كثير من طلبة العلم ليس مقصودهم به إلا تحصيل رئاسة أو مال، ولكل امرئ ما نوى، وأما أهل العلم والدين الذين هم أهله، فهو مقصود عندهم لمنفعته لهم وحاجتهم إليه في الدنيا والآخرة.. ولهذا تجد أهل الانتفاع به يزكون به نفوسهم، ويقصدون فيه اتباع الحق لا اتباع الهوى، ويسلكون فيه سبيل أهل العدل والإنصاف، ويحبونه، ويتلذذون به، ويحبون كثرته وكثرة أهله، وتنبعث هممهم على العمل به، وبموجبه ومقتضاه)[١].

ومن صفة العالم فيما بينه وبين الله عز وجل (أن يكون لله شاكرًا وله ذاكرًا، دائم الذكر بحلاوة حب المذكور، منعم قلبه بمناجاة الرحمن، يعد نفسه مع شدة اجتهاده خاطئًا مذنبًا، ومع الدؤوب على حسن العمل مقصرًا، لجأ إلى الله عز وجل فقوي ظهره، ووثق بالله فلم يخف غيره، مستغن بالله عن كل شيء، ومفتقر إلى الله في كل شيء، أنسه بالله وحده، ووحشته ممن يشغله عن ربه، إن ازداد علمًا خاف توكيد الحجة، مشفق على ما مضى من صالح عمله أن لا يقبل منه، همه في تلاوة كلام الله، الفهم عن مولاه، وفي سنن الرسول ﷺ الفقه؛ لئلا يضيع ما أمر به، متأدب بالقرآن والسنة، لا ينافس أهل الدنيا في عزها، ولا يجزع من ذلها، يمشي على الأرض هونًا بالسكينة والوقار، ومشتغل قلبه بالفهم والاعتبار، إن فرغ قلبه عن

---

(١) منهاج السنة النبوية (٨/٢٠٩، ٢١٠).

ذكر الله فمصيبة عنده عظيمة، وإن أطاع الله عز وجل بغير حضور فهم فخسران عنده مبين... قال الله عز وجل: ﴿ **قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا**﴾[الإسراء: ١٠٧-١٠٩] [(١)].

وليحذر طالب صلاح قلبه من الوقيعة في العلماء واستنقاصهم، وتتبع عوراتهم، فإن هذا باب هلكة، وسبيل ضلال، وقد قيل: إن لحوم العلماء مسمومة، وعادة الله في هتك أعراض منتقصيهم معلومة، ومن أطلق لسانه في العلماء بالثلب، ابتلاه الله قبل موته بموت القلب.

ومن أراد الانتفاع بمجالس أهل العلم ومواعظهم، فلا يشتغل بعيوبهم، فيحرم نفسه خيرهم، فإنه: إنما ينتفع بالعظة بعد حصول ثلاثة أشياء: شدة الافتقار إليها، والعمى عن عيب الواعظ، فإنه إذا اشتغل به حرم الانتفاع بموعظته، وتذكر الوعد والوعيد [(٢)].

(٥) مطالعة القلب لأسماء الله جل وعلا وصفاته، ومعرفتها، فمن عرف الله بأسمائه وصفاته، فلابد أن يحبه ويخشاه ويرجوه ويتوكل

---

(١) كتاب أخلاق العلماء للآجري (٩٠، ٩١).

(٢) انظر: للأشياء الثلاثة تهذيب مدارج السالكين ص (٢٣٩).

عليه وينيب إليه ويخلص دينه له.

قال تعالى: ﴿ **وَلِلهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

ويقول ﷺ: «**إن لله تسعة وتسعين اسمًا من أحصاها دخل الجنة**»(١).

وإحصاؤها يكون بمعرفة ألفاظها ومعانيها والتعبد لله بمقتضاها.

فمطالعة أسماء الجمال تورث العبد المحبة والشوق.

ومطالعة أسماء الجلال تورثه الخشية والإخبات لربه.

ومن أعمال القلوب التوكل والإحسان والمراقبة فتأمل قوله تعالى: ﴿**وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ * إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾[الشعراء: ٢١٧-٢٢٠].

يقول الشيخ عبد الرحمن بن سعدي: (والتوكل هو اعتماد القلب على الله تعالى في جلب المنافع ودفع المضار، مع ثقته به وحسن ظنه بحصول مطلوبه، فإنه عزيز رحيم، بعزته يقدر على إيصال الخير ودفع الشر عن عبده وبرحمته يفعل ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣٦) ومسلم (٢٦٧٧).

ثم نبهه على الاستعانة باستحضار قرب الله والنزول في منزل الإحسان، فقال: ﴿ **الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ** ﴾ أي: يراك في هذه العبادة العظيمة التي هي الصلاة وقت قيامك وتقلبك راكعًا وساجدًا. وخصها بالذكر لفضلها وشرفها، ولأن من استحضر فيها قرب ربه خشع وذلك وأكملها... ﴿ **إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾ فاستحضار العبد رؤية الله له في جميع أحواله وسمعه لكل ما ينطق به وعلمه بما ينطوي عليه قلبه من الهم والعزم والنيات مما يعينه على منزلة الإحسان) [(١)].

ومن مغزى اقتران هذين الاسمين ﴿ **الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ** ﴾ أن من تفكر فيهما أوجب له ذلك حسن التوكل على الله؛ إذ الاعتماد لا يصلح إلا على قوي قادر لا يغلب، ومع ذلك رحيم بعباده، هو حسب من توكل عليه.

(٦) مطالعة سيرة النبي ﷺ فإنه ﷺ الأسوة: ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ [القلم: ٤].

والعيش مع السيرة النبوية ومواقفها العظيمة، لا سيما المواقف التي نزل فيها قرآن يتلى، مع تدبر الآيات له أثر عظيم في إحياء القلب وتقوية الإيمان.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥٩٩).

وقصص الأنبياء عمومًا فيها عبرة لأصحاب البصائر، ولذا قص الله في القرآن مواقف إيمانية لعدد من أنبيائه وقال: ﴿ **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ** ﴾ [يوسف: ١١١].

وخير من ينتفع بسيرته بعد الانبياء، صحابة نبينا محمد ﷺ فإنهم الجيل الفريد، الذي رباه النبي ﷺ على عينه، ثم سير الصالحين والعلماء الربانيين الذين ساروا على نهج السلف في العلم والعمل.

ففي أخبار أولئك القوم نماذج تحتذي، في التعلم والتعبد، والزهد والورع، والإخلاص والخشية، والتوكل والإنابة، والاستقامة والاتباع، والجهاد وبذل المهج والأموال في سبيل الله.

وتلك الأخبار تشحذ الهمم الكليلة، وتقوي العزائم الفاترة، وتعلو بمطالعتها القدوة وتنقشع عن القلب الغمة، فيبصر ميدان السباق وقد سار فيه الانبياء والصديقون والشهداء والصالحون، فتزول وحشة التفرد عن أبناء الزمان، ما دام الرفقة أولئك، وحسن أولئك رفيقًا.

﴿ **وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا** ﴾ [النساء: ٦٩].

(٧) اجتناب المعاصي ومفسدات القلب.

وقد أفاض ابن القيم في ذكر الآثار السيئة للمعاصي وذكر (أن الذنوب والمعاصي تضر، ولا شك أن ضررها في القلوب كضرر السموم في الأبدان)[١].

ثم فصل رحمه الله أضرار المعاصي بالقلب والبدن، فكان مما ذكره من ضررها بالقلب ما يأتي:

(أ) أنها تحرم القلب العلم؛ لأن العلم نور تطفئه المعاصي.

(ب) أنها إذا تكاثرت، طبع على قلب صاحبها، فكان من الغافلين، كما قال الحسن البصري في قوله: ﴿ **كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾ [المطففين: ١٤] هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب، وأصل هذا أن القلب يصدأ من المعصية، فإذا زادت غلب الصدأ حتى يصير رانًا، ثم يغلب حتى يصير طبعًا وقفلاً وختمًا، فيصير القلب في غشاوة وغلاف، فلا ينتفع بالأغذية التي بها حياته وصلاحه.

(ج) أنها تطفئ من القلب نار الغيرة، التي هي لحياته كالحرارة لحياة البدن، فإن الغيرة حرارة القلب التي تخرج ما فيه من الخبث والصفات المذمومة كما يخرج الكير خبث الذهب.

(د) أنها تذهب الحياء الذي هو مادة الحياة للقلب وأصل كل

---

(١) الجواب الكافي ص (٨٠).

خير.

(هـ) أنها تضعف في القلب تعظيم الرب جل جلاله.

(و) أنها تضعف سير القلب إلى الله والدار الآخرة وتعوقه وتوقفه إن لم ترده إلى الوراء، والقلب إنما يسير إلى الله بقوته، فإذا مرض القلب، ضعف سيره وانقطع في طريقه [(١)].

وأما مفسدات القلب فقد ذكر ابن القيم أنها خمسة: كثرة الخلطة، والتمني، والتعلق بغير الله من مال أو جاه أو صورة، والشبع المفرط، وكثرة النوم، ويزيد بعضهم فضول النظر، وفضول الكلام.

ثم قال رحمه الله: (فهذه الخمسة من أكبر مفسدات القلب؛ ذلك أن القلب يسير إلى الله عز وجل والدار الآخرة، ويشكف عن طريق الحق ونهجه، وآفات النفس والعمل، وقطاع الطرق، بنوره وحياته وقوته وصحته وعزمه، وسلامة سمعه وصحته وبصره وغيبة الشواغل والقواطع عنه).

وهذه الخمسة تطفئ نوره، وتعور عين بصيرته، وتثقل سمعه- إن لم تصمه وتبكمه- وتضعف قواه كلها، وتوهن صحته، وتفتر عزيمته، وتوقف همته، وتنكسه إلى ورائه.

ومن لا شعور له بهذا فميت القلب، وما لجرح بميت إيلام،

---

(١) انظر: الجواب الكافي من ص (٩٧-١٥٣) ففيه كلام نفيس في عقوبات الذنوب والمعاصي.

فهي عائقة له عن نيل كماله، قاطعة له عن الوصول إلى ما خلق له، وجعل نعيمه وسعادته وابتهاجه ولذته في الوصول إليه)[١].

(١) تهذيب مدارج السالكين ص (٢٤٤) وقد فصل رحمه الله في تأثير هذه المفسدات بكلام مفيد من ص (٢٤٥-٢٤٩).

المبحث الرابع
وجوب لزوم السنة في طريق إصلاح القلب

من خلال ما تقدم من مباحث يظهر بجلاء أن أعمال القلوب من أصول الإيمان وقواعد الدين، وما دامت كذلك فمحال ألا يكون في الكتاب والسنة ما يشفي ويكفي في علمها وطريق تحصيلها.

ولكن لما بعدت الشقة بين كثير من الناس وبين تدبر القرآن والفقه في السنة، دعت الحاجة إلى إبراز تلك المعاني العظيمة، تبصرة وذكرى.

والكلام في تلك الأصول وطلب تحصيلها يجب أن يكون مستقى من القرآن الكريم وسنة سيد المرسلين، موافقًا للهدي النبوي، وما كان عليه سلف الأمة.

فمحبة الله التي هي رأس أعمال القلوب مقتضاها اتباع السنة: ﴿ **قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾ [آل عمران: ٣١].

وأهل الرجاء لله هم أهل التأسي بنبيه ﷺ: ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ** ﴾[الأحزاب: ٢١].

والتقوى التي هي جماع صلاح القلب والجوارح سبيلها اتباع

الصراط المستقيم ﴿ **وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾[الأنعام: ١٥٣].

قال مجاهد: السبل: البدع والشبهات [(١)].

وفي اتباع الوحيين عصمة ﴿ **فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ * إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ** ﴾[التكوير: ٢٨] ﴿ **ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ** ﴾[البقرة: ٢] ﴿ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** ﴾ [الحشر: ٧].

وقد قال ﷺ: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا، فهو رد**»[(٢)] وهذا الحديث ميزان لما عليه الناس من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يقول في خطبته: «**خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة**»[(٣)].

---

(١) الدارمي (٦٨/١).

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٩٧) ومسلم (١٧١٨).

(٣) أخرجه مسلم رقم (٨٦٧).

يقول ابن تيمية: (فمن بنى الكلام في العلم -الأصول والفروع- على الكتاب والسنة والآثار المأثورة عن السابقين، فقد أصاب طريق النبوة).

وكذلك من بني الإرادة والعبادة والعمل والسماع المتعلق بأصول الأعمال وفروعها من الأحوال القلبية والأعمال البدنية على الإيمان والسنة والهدى الذي كان عليه محمد ﷺ وأصحابه، فقد أصاب طريق النبوة، وهذه طريق أئمة الهدى) [(١)].

وربما التبس على بعض الناس الحق بالباطل مع كثرة الاختلاف وتعدد الآراء، والمخرج من ذلك أرشد إليه النبي ﷺ حين قال: «**أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة، وإن كان عبدًا حبشيًا، فإنه من يعش منكم بعدى فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوًا عليها بالنواجذ، وإياكم والمحدثات، فإن كل محدثة بدعة**» وفي لفظ «**وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة**»[(٢)].

وحسن النية والصدق في طلب الخير ليسا كفيلين بالفلاح ما لم يقرنا بالاتباع، فعن عمرو بن يحيى قال: (سمعت أبي يحدث عن أبيه قال: كنا نجلس على باب عبد الله بن مسعود قبل صلاة الغداة، فإذا

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/٣٦٣).

(٢) أخرجه أحمد (١٧٢٧٤) والترمذي (٢٦٧٦) وصححه الالباني.

خرج، مشينًا معه إلى المسجد؛ فجاءنا أبو موسى الأشعري فقال: أخرج عليكم أبو عبد الرحمن بعد؟ قلنا: لا، فجلس معنا حتى خرج، فلما خرج، قمنا إليه جميعًا، فقال له أبو موسى: يا أبا عبد الرحمن، إني رأيت في المسجد آنفًا أمرًا أنكرته، ولم أر والحمد لله إلا خيرًا. قال: فما هو؟ فقال: إن عشت تراه، قال: رأيت في المسجد قومًا حلقًا جلوسًا ينتظرون الصلاة، في كل حلقة رجل، في أيديهم حصى، فيقول كبروا مائة، فيكبرون مائة، فيقول: هللوا مائة، فيهللون مائة، فيقول: سبحوا مائة، فيسبحون مائة، قال: فماذا قلت لهم؟ قال: ما قلت لهم شيئًا انتظار رأيك أو انتظار أمرك؟ قال: أفلا أمرتهم أن يعدوا سيئاتهم، وضمنت أن لا يضيع من حسناتهم شيء.

ثم مضى ومضينا معه، حتى أتى حلقة من تلك الحلقات، فوقف عليهم فقال: ما هذا الذي أراكم تصنعون؟ قالوا: يا أبا عبد الرحمن، حصى نعد به التكبير والتهليل والتسبيح، قال: فعدوا سيئاتكم، فأنا ضامن ألا يضيع من حسناتكم شيء، ويحكم يا أمة محمد، ما أسرع هلكتكم، هؤلاء صحابة نبيكم متوافرون، وهذه ثيابه لم تبل، وآنيته لم تكسر. والذي نفسي بيده إنكم لعلى ملة هي أهدى من ملة محمد أو مفتتحو باب ضلالة. قالوا: والله يا أبا عبد الرحمن ما أردنا إلا الخير. فقال: وكم من مريد للخير لن يصيبه!، إن رسول الله ﷺ حدثنا أن قومًا يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، وأيم الله، لا أدري لعل أكثرهم منكم، ثم تولى عنهم فقال عمرو بن

سلمة: رأيت عامة أولئك يطاعنوننا يوم النهروان مع الخوارج) [(١)].

هذا وإن بعض من يسلك الطرق المبتدعة يحتج بما يجده في ذلك من أعمال قلبية، وهذا ليس دليلا على صحة ذلك الطريق. بل المعول في ذلك على موافقة السنة، وقد يكون ما يجده فتنة واستدراجًا.

ومن أنكر هذا فليتأمل حال الخوارج، الذين جاءت النصوص النبوية بذمهم والأمر بقتلهم، وأنهم كلاب النار، وأنهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، مع أنهم وصفوا في النصوص بأنهم يحقر المرء صلاته عند صلاتهم، وقراءته عند قراءتهم، ومع ما كانوا عليه في عصر الصحابة من عظيم التعبد وإظهار الخشية والبكاء عند تلاوة القرآن.

ولله در العالم الرباني الأوزاعي حين قال: (من ابتدع بدعة خلاه الشيطان والعبادة، وألقى عليه الخشوع والبكاء؛ لكي يصطاد به) [(٢)]. ولكي يثبت على بدعته، فيكون من الأخسرين أعمالاً ﴿ **الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا** ﴾[الكهف: ١٠٤].

وقد ورد أن ابن عباس قيل له: إن اليهود تزعم أنها لا توسوس

---

(١) أخرجه الدارمي (٢٠٤) وهو في السلسلة الصحيحة برقم (٢٠٠٥).

(٢) الحوادث والبدع (١٤٩).

في صلاتها، فقال: وما يصنع الشيطان بالقلب الخراب [١].

وربما اغتر بعض سالكي الطرق البدعية بما يجدونه من خوارق يظنونها كرامات، تدل على سلامة طريقهم.

وهذا خطأ بين؛ فالخوارق ليست دليلا على ولاية من جرت له. ألا ترى أن المسيح الدجال ثبت في النصوص النبوية أنه تجري على يده خوارق عظيمة، ولم يكن ذلك دليلاً على إسلامه ولا ولايته. وقد شاهد الناس خوارق تجري على أيدي وثنيين كفار، وسحرة ومشعوذين.

فإن قيل: فكيف تميز كرامات الأولياء عن الأحوال الشيطانية؟

فالجواب: أن أولياء الله عرفنا بهم ربنا بقوله: ﴿ **أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ** ﴾ [يونس: ٦٤] فأهل الإيمان والتقوى هم أولياء الله، قد تقدم أن القرآن دل على أن التقوى تنال باتباع الصراط المستقيم وتجنب سبل الشيطان وهي البدع والشبهات وليس من شرط الولاية جريان الخوارق[٢].

---

(١) الأثر أورده ابن القيم في الوابل الصيب منسوبًا لابن عباس، وذكر محققه الأنصاري أنه ورد معناه عن الأعمش عند أبي نعيم في الحلية، وعن العلاء بن زياد عند أحمد في كتاب الزهد. الوابل الصيب بتحقيق الأنصاري (٥٨).

(٢) انظر: الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص (١٧٢).

المبحث الخامس
إنكار منكرات القلوب
وخطأ التثبيط عن الخير حذر الرياء

من شرط المنكر الذي يحتسب فيه أن يكون ظاهرًا من غير تجسس، وقد دل قوله ﷺ: «**من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده..**» إلخ [(١)] على أن الإنكار متعلق بالرؤية، فلون كان مستورًا لم يره، لم يتعرض له [(٢)].

وبناء على هذا، فليس لأحد الإنكار في المعاصي القلبية، كالرياء والحسد والكبر وغيرها؛ لخفائها.

وربما عمد بعض الناس إلى النهي عن أمر مشروع أو التثبيط عنه بمجرد زعمه أن ذلك رياء وتشكيكه في مقاصد القائمين عليه، وقد رد شيخ الإسلام ابن تيمية على هذا بوجوه أربعة، فقال رحمه الله: (أحدها: أن الأعمال المشروعة لا ينهى عنها خوفًا من الرياء، بل يؤمر بها وبالإخلاص فيها، ونحن إذا رأينا من يفعلها أقررناه، وإن جزمنا أنه يفعلها رياء، فالمنافقون الذين قال الله فيهم ﴿ **إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلَّا قَلِيلًا** ﴾[النساء: ١٤٢].

---

(١) مسلم (٤٩).

(٢) انظر: جامع العلوم والحكم (٢/٢٥٤).

فهؤلاء كان النبي ﷺ والمسلمون يقرونهم على ما يظهرونه من الدين، وإن كانوا مرائين، ولا ينهونهم عن الظاهر؛ لأن الفساد في ترك إظهار المشروع أعظم من الفساد في إظهاره رياء، كما أن فساد ترك إظهار الإيمان والصلوات أعظم من الفساد في إظهار ذلك رياء، ولأن الإنكار إنما يقع على الفساد في إظهار ذلك رياء الناس.

الثاني: لأن الإنكار إنما يقع على ما أنكرته الشريعة، وقد قال رسول الله ﷺ: «**إني لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس، ولا أن أشق بطونهم**»[1].

وقال عمر بن الخطاب: من أظهر لنا خيرًا أحببناه، وواليناه عليه، وإن كانت سريرته بخلاف ذلك، ومن أظهر لنا شرًا أبغضناه عليه، وإن زعم أن سريرته صالحة.

الثالث: أن تسويغ مثل هذا يفضي إلى أن أهل الشرك والفساد ينكرون على أهل الخير والدين، إذا رأوا من يظهر أمرًا مشروعًا مسنونًا، قالوا: هذا مراء، فيترك أهل الصدق والإخلاص إظهار الأمور المشروعة؛ حذرًا من لمزهم وذمهم، فيتعطل الخير، ويبقى لأهل الشر شوكة يظهرون الشر، ولا أحد ينكر عليهم، وهذا من أعظم المفاسد).

---

(١) أخرجه الخباري (٤٣٥١) ومسلم (١٠٦٤).

الرابع: أن مثل هذا من شعائر المنافقين.. قال تعالى: ﴿ **الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾[التوبة: ٧٩] فإن النبي ﷺ لما حض على الإنفاق عام تبوك، جاء بعض الصحابة بصرة كادت يده تعجز من حملها، فقالوا: هذا مراء، وجاء بعضهم بصاع، فقالوا: لقد كان الله غنيًا عن صاع فلان)[١].

وفي الجملة (فإن الله سبحانه لم يجعل أحكام الدنيا على السرائر، بل على الظواهر والسرائر تبع لها، وأما أحكام الآخرة فعلى السرائر والظواهر تبع لها)[٢].

وإذا لم يكن لأحد الأنكار في معاصي القلوب، فإن هذا يزيد العبء والمسؤولية على الفرد في إصلاح قلبه، فعلى المتلبس بشيء منها تفقد قلبه ومعالجة نفسه وتزكيتها.

هذا وإن آفات الطريق كثيرة، والاشتغال بالبحث عنها سبب انقطاع، لكن من عرض له شيء منها وجب عليه التخلص منه.

يقول ابن القيم: (سألت عن هذه المسألة بعض الشيوخ فقال لي: مثل آفات النفس مثل الحيات والعقارب التي في طريق المسافر، فإن أقبل على تفتيش الطريق عنها، والاشتغال بقتلها انقطع، ولم

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٣/١٧٤-١٧٦).

(٢) إعلام الموقعين (١/١٢٩).

يمكنه السفر قط، ولكن لتكن همتك المسير، والإعراض عنها، وعدم الالتفات إليها، فإذا عرض لك فيها ما يعوقك عن المسير فاقتله ثم امض في سيرك).

فاستحسن شيخ الإسلام (ابن تيمية) ذلك جدًا وأثنى على قائله) [(١)].

فهناك فرق بين الوساوس والخطرات بالرياء التي ترد على المخلص وهو في طاعته لربه، وبين من تستقر عنده تلك الخطرات فيصير مقصوده رياء الخلق، فالأول يمضي ولا يلتفت، والثاني يحتاج إلى علاج نفسه مع الاستمرار في العمل الصالح والاجتهاد في تصحيح النية.

---

(١) مدارج السالكين (٢/٢٣٣).

الخاتمة

الحمد لله عز وجل على إتمام هذا الكتاب، الذي تضمن من أدلة الكتاب والسنة وكلام علماء الأمة ما يبرز حقيقة غابت عن أذهان الكثيرين، فقل التذكر فيها والتذاكر، مع مسيس الحاجة إليها علمًا وعملاً.

أخي المسلم. أخي طالب العلم...

لقد فتح لك باب رشد، وسبيل نجاة وقامت عليك الحجة، واتضحت لك المحجة، فسر ولا تلتفت واستعن بربك ﴿ **فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ** ﴾[النمل: ٧٩]، ﴿ **وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ** ﴾[إبراهيم: ١٢]. وها أنت عرفت فالزم.

وإني أعيذك أن تكون ممن لا يؤثر فيها الوعظ، إلا بمقدار سماعه، أو النظر فيه، كمطر وقع على صفوان.

واعلم أن أعظم زكاة العلم ربانية القلب ﴿ **وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ** ﴾ [آل عمران: ٧٩].

ومن ركن إلى عوائده، وقعدت به همته عن طلب صلاح قلبه، فليحذر العقوبة؛ فإن الله يحول بين المرء وقلبه.

يقول ابن القيم في فوائد قصة توبة كعب بن مالك رضي الله عنه: (ومنها أن الرجل إذا حضرت له فرصة القربة والطاعة، فالحزم كل الحزم في انتهازها والمبادرة إليها، والعجز في تأخيرها والتسويف بها، ولا سيما إذا لم يثق بقدرته، وتمكنه من أسباب تحصيلها؛ فإن العزائم والهمم سريعة الانتقاض قلما ثبتت والله سبحانه يعاقب من فتح له بابًا من الخير فلم ينتهزه، بأن يحول بين قلبه وإرادته، فلا يمكنه بعد من إرادته عقوبة له، فمن لم يستجب لله ورسوله إذا دعاه، حال بينه وبين قلبه وإرادته، فلا يمكنه الاستجابة بعد ذلك قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ**﴾[الأنفال: ٢٤].

وقد صرح بهذا في قوله ﴿ **وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ** ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وقال تعالى: ﴿ **فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ** ﴾[الصف: ٥]).

وقال: ﴿ **وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ** ﴾[التوبة: ١١٥].

وهو كثير في القرآن) [١].

---

(١) زاد المعاد (٥٧٤/٣) وانظر: الفوائد (١٣٦) تهذيب مدارج السالكين (٤٨).

وإنت سمت همتك إلى السعي في إصلاح قلبك. وسرت إلى الله قلبًا وبدنًا فأبشر بالتثبيت والهداية قال تعالى: ﴿ **ولو أنهم فعلوا ما يوعظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا * وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا** ﴾ [النساء: ٦٦-٦٨] وقال سبحانه ﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾[العنكبوت: ٦٩] وما هي إلا مصابرة ساعة، يعقبها روح نعيم أبد، فإذا ذاق المؤمن حلاوة الإيمان، ولذة الطاعة، وأنس القرب من الرحمن، لم يأس على فائت دنيا، ولم يعدل بسبيل الهداية سبلاً. وقال في الدنيا قبل الآخرة: (الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله).

وعليك بالتسديد والمقاربة، والقصد القصد تبلغ مناك، يقول ﷺ: «**إن لكل شيء شرة، ولكل شرة فترة، فإن صاحبها سدد وقارب، فارجوه، وإن أشير إليه بالأصابع فلا تعدوه**»[١].

والزم سنة نبيك محمد ﷺ، وما كان عليه سلف الأمة من الهدي الظاهر والباطن، واحذر البدع، فإن كل بدعة في الدين ضلالة ولا طريق إلى الله إلا باتباع سنة رسوله ﷺ ولا يقبل الله من العمل إلا ما كان خالصًا لوجهه، موافقًا لسنة نبيه ﷺ.

﴿ **فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ**

---

(١) أخرجه أحمد (٦٤٧٧) والترمذي (١٩٩٥) وصححه الألباني.

بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾[الكهف: ١١٠] وفقني الله و إياك للعلم النافع والعمل الصالح، ورزقنا الإيمان الحق، والقلوب السليمة، والحمد لله أولا وآخرًا، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

فهرس المراجع

(١) أحكام القرآن الكريم (الفاتحة، البقرة) لمحمد بن صالح العثيمين، جمع عبد الكريم المقرن ط. الأولى ١٤١٥هـ. دار طويق- الرياض.

(٢) الفوائد لابن قيم الجوزية ت: محمد عثمان الخشت، ط. الأولى ١٤٠٥هـ ، دار الكتاب العربي، بيروت.

(٣) الزواجر عن اقتراف الكبائر، لأحمد بن حجر الهيتمي، ط. ١٤٠٢هـ دار المعرفة بيروت.

(٤) الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب، ت: إسماعيل الأنصاري، رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء- السعودية.

(٥) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، و ضعه محمد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٦) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، لابن قيم الجوزية، ت: عبيد الله بن غالية، ط. الأولى ١٤٠٧هـ. دار الكتاب العربي. بيروت.

(٧) الإيمان. لابن تيمية.

(٨) العبودية لابن تيمية، ط. الخامسة ١٣٩٩هـ المكتب الإسلامي بيروت.

(٩) استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس لابن رجب الحنبلي، ت أحمد الشريف ط. الأولى ١٤١١هـ المكتب الإسلامي بيروت.

(١٠) اختيار الأولى شرح حديث اختصام الملأ الأعلى، لابن رجب الحنبلي.

(١١) اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم لابن تيمية. ت ناصر العقل ط. الأولى ١٤٠٤هـ. توزيع مكتبة الرشد، الرياض.

(١٢) الأشباه والنظائر في قواعد وفروع فقه الشافعية، لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي الطبعة الأخيرة ١٣٧٨هـ شركة مكتبة مصطفى البابي الحلبي، مصر.

(١٣) الموافقات في أصول الشريعة، لأبي إسحاق الشاطبي، ت: عبد الله دراز دار المعرفة، بيروت.

(١٤) الوجيز في أصول الفقه، لعبد الكريم زيدان، ط. الثانية ١٤٠٧هـ مؤسسة الرسالة بيروت.

(١٥) التذكرة بأذكار الحج والعمرة وأدعية القرآن والسنة، لأحمد محمد إسماعيل.

(١٦) التفسير القيم للإمام ابن القيم، جمعه محمد إدريس

الندوي، دار العلوم الحديثية بيروت.

(١٧) الباعث على إنكار البدع والحوادث، لأبي شامة الشافعي. ت: مشهور حسن سلمان ط. الأولى ١٤١٠هـ. دار الراية، الرياض.

(١٨) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان لابن تيمية تعليق: محمود فايد، نشر رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء، السعودية.

(١٩) القول المفيد على كتاب التوحيد، لمحمد بن صالح العثيمين ط. الأولى ١٤١٥هـ دار العاصمة الرياض.

(٢٠) المحجة في سير الدلجة، لابن رجب الحنبلي، ت: يحيى غزاوي ط. الأولى ١٤٠٤هـ دار البشائر الإسلامية بيروت.

(٢١) الفتح الرباني ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني ومعه شرحه بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني ترتيب وتأليف أحمد عبد الرحمن البنا، دار الشهاب، القاهرة.

(٢٢) الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله القرطبي. دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٢٣) الحوادث والبدع لابن وضاح.

(٢٤) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان لابن قيم الجوزية.

ت: حامد الفقي، دار المعرفة بيروت.

(٢٥) إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن قيم الجوزية. ت: محيي الدين عبد الحميد.

(٢٦) بدائع الفوائد لابن قيم الجوزية، دار الكتاب العربي بيروت.

(٢٧) ترتيب أحاديث صحيح الجامع الصغير وزيادته على الأبواب الفقهية، رتبه وبوبه عوني الشريف، ط الأولى، مكتبة المعارف الرياض.

(٢٨) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لعبد الرحمن بن ناصر السعدي. ت عبد الرحمن اللويحق. ط. الثانية ١٤٢١هـ مكتبة الرشد الرياض.

(٢٩) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، لسليمان بن عبد الله، ط السابعة ١٤٠٨هـ المكتب الإسلامي بيروت.

(٣٠) تهذيب مدارج السالكين، لابن القيم، هذبه عبد المنعم العزي. ط. وزارة العدل بالإمارات العربية المتحدة.

(٣١) جامع العلوم و الحكم في شرح خمسين حديثًا من جوامع الكلم، لابن رجب الحنبلي، ت: شعيب الأرناؤوط وإبراهيم باجس، ط. الأولى ١٤١١هـ. مؤسسة الرسالة.

(٣٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم الأصفهاني.

(٣٣) دقائق التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن تيمية، ت. محمد السيد الجليند. ط الثانية ١٤٠٤هـ مؤسسة علوم القرآن دمشق.

(٣٤) روضة الطالين وعمدة المفتين للإمام النووي ط. الثانية ١٤٠٥هـ المكتب الإسلامي بيروت.

(٣٥) زاد المعاد في هدي خير العباد لابن قيم الجوزية. ت: شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط. ط. الثالثة ١٤٠٢هـ مؤسسة الرسالة بيروت.

(٣٦) سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيء على الأمة، لمحمد بن ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي بيروت.

(٣٧) سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، لمحمد ناصر الدين الألباني المكتب الإسلامي، مكتبة المعارف.

(٣٨) صيد الخاطر لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوقزي- المكتبة العلمية- بيروت.

(٣٩) صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير) لمحمد بن ناصر الدين الألباني (١٤٠٢/٣هـ) المكتب الإسلامي بيروت.

(٤٠) صحيح الترغيب والترهيب للحافظ المنذري، اختيار

وتحقيق محمد ناصر الدين الألباني ط. الأولى ١٤٠٢هـ المكتب الإسلامي بيروت.

(٤١) طرح التثريب في شرح التقريب لزين الدين العراقي، دار إحياء التراث العربي.

(٤٢) عون المعبود شرح سنن أبي داود لشمس الحق العظيم آبادي. ط. الثالثة ١٣٩٩هـ دار الفكر بيروت.

(٤٣) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن قيم الجوزية. ت. محمد عثمان الخشت. ط الأولى ١٤٠٥هـ دار الكتاب العربي بيروت.

(٤٤) قواعد الأحكام في مصالح الأنام، لعز الدين بن عبد السلام السلمي، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٤٥) قاعدة في المحبة، لابن تيمية، ت: رشاد سالم مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة.

(٤٦) كتاب تعظيم قدر الصلاة، لمحمد بن نصر المروزي، ت: عبدالرحمن الفريوائي، ط. الأولى ١٤٠٦هـ مكتبة الدار بالمدينة المنورة.

(٤٧) كتاب أخلاق العلماء لأبي بكر محمد بن الحسين الآجري، اعتنى به أحمد حاج عثمانت، ط. الأولى ١٤٢٦هـ. دار أضواء السلف.

(٤٨) كتاب الزهد للإمام أحمد بن حنبل ط ١٣٩٨هـ دار

الكتب العلمية بيروت.

(٤٩) لسان العرب، لابن منظور، تحقيق نخبة من الأساتذة. دار المعارف.

(٥٠) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية جمع وترتيب عبدالرحمن بن محمد بن قاسم، طبع بإشراف الرئاسة العامة لشئون الحرمين.

(٥١) مختصر الفتاوى المصرية.

(٥٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن قيم الجوزية ط. الأولى ١٤٠٣هـ دار الكتاب العربي، بيروت.

(٥٣) مجموع الفوائد واقتناص الأوابد، لعبد الرحمن بن سعدي ط. الأولى ١٤١٨هـ دار ابن الجوزي السعودية.

(٥٤) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، لابن قيم الجوزية ط. الثالثة ١٣٩٩ هـ. مكتبة حميدو الاسكندرية.

(٥٥) مشكاة المصابيح للإمام التبريزي ت: محمد ناصر الدين الألباني، ط. المكتب الإسلامي.

(٥٦) منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية لابن تيمية. ت: رشاد سالم ط الأولى ١٤٠٦هـ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، السعودية.

فهرس الموضوعات